مقدمة

كتاب

التحفة الوفائية

(فى اللغة العامية المصرية)

تأليف

حضرة العالم الفاضل النحرير الكامل السيد وفا افندى محمد

أمين الكتبخانة الخديوية المصرية

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الاولى)

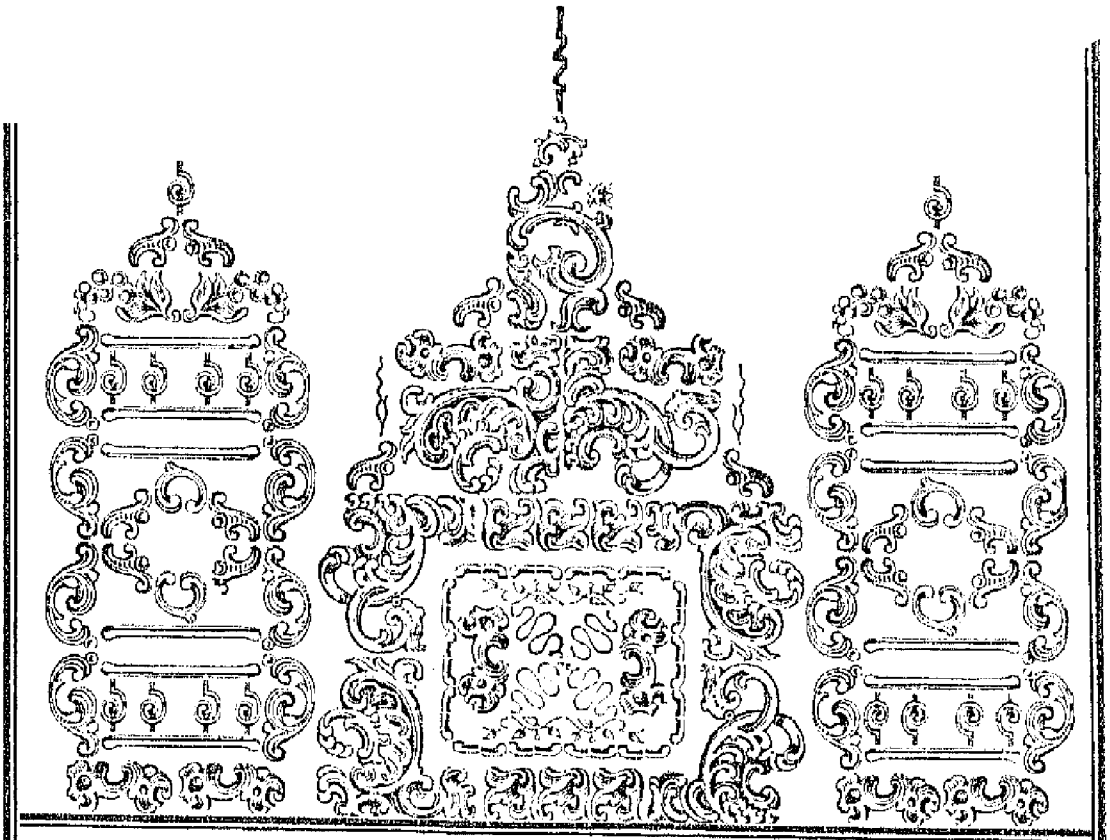

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق الانسان علمه البيان اذ يسر له لسانه وأجرى به بنانه فقام بالاول نظام الكلام وجرى الثاني في ميدان الطروس على سوابق الاقلام قضى سبحانه باختلاف اللغات وفي اختلافها آيات بينات وحجج بالغات وباين بين مبانيها ووفق ألفاظها لمعانيها فألفت كل أمة لغتها المسموعة وجرت كل لغة على لهجتها المطبوعة ألا وإن اللغة العربية أفصحها لهجة وأوضحها محجة وأرفعها شانا وأبدعها بيانا وأوسعها نطاقا وأحلاها مذاقا فهي بحرها العباب وموردها العذب المستطاب لا ينتهي زاخرها الى حد ولا تتناهى ذخائرها عند عد ناهيك بمن اغترف من معين شريعتها وارتشف

من

من عين حقيقتها وتمسك بعروة أدبها وتنسك بصدق الرغبة في طلبها حتى برز في الخطابة وأحرز فن الكتابة فهو من هدى الى النجدين ما أصبح ذا بنان ولسان وشفتين فلا تقتحم عقبته ولا تثلم حدته ولا تبلى بين الورى جدته كلا ولا تأخذه الصروف ولا تنبذه الظروف مادام بأصغريه يفهم بقلبه عن ربه ويناضل عن شانه بسنان قلمه وحد لسانه ويفاخر بفضله ونبله لا بنسبه وطيلسانه ﴿والصلاة والسلام على من خص باللسان الفصيح والقدر الرجيح والخلق المليح سيدنا محمد وآله والناسجين على منواله ﴿أما بعد﴾ فان اللغات العامية العربية على اختلافها في سائر الاقطار وان كانت في الحقيقة ترجع الى اللغة العربية لاتفاقها معها في جل موادها اللفظية وأساليبها الكلامية واشتراكهما في أن المتكلم بهما من أصل الجبلة هم غالبا أبناء الأمة العربية الا أنها تنفرد عنها في كثير من الاحوال لما داخلها من التحريف والتصحيف والتغيير والتبديل منذ عدة من الاجيال حتى صار بهذا الاختلاف الذي شوه محاسنها الاولية وقلب صورتها الاصلية وألبسها ثوب الفاقة والعوز وقلدها بعد الدر بالخرز يعد كل منها لغة برأسه ينكره حسبه ويبرأ منه نسبه كالساقط بين الفراشين ومن لفقته الطبيعة من غير أبوين

لعمري ان انقسام اللغة العربية الى هذه اللغات العامية قد ترتب

عليه بالضرورة انقسام من يتكلمون بالعربية الى عامة يحول بينهم وبين معرفتهم بالعلوم النافعة جهلهم باللغة التى عليها المعوّل فى تدوين الكتب والاسفار العلمية وخاصة وهم الذين نسبتهم الى العامة كنسبة العالم الى الجاهل والنابه الى الخامل فكأنهم هم الذين يستحقون أن يتصفوا بوصف المكلفين ويصدق عليهم وحدهم اسم الأمة وذلك كما لايخفى لايناسب وحدة الجامعة الملية والرابطة الأمية القاضية على كافة أفراد الامة بأن تتلاقى فى نقطة واحدة هى نقطة المصالح والمنافع العمومية

وحيث ان طريق التدوين للكتب العربية انما يكون باللغة الفصيحة لاخلاف فيه بين شرقىّ وغربىّ ولا بين مسلم ومسيحىّ ولهذا كانت التآليف العربية عمية الفائدة بين من يعرفون هذه اللغة خاصة وكان العامىّ الذى لايعرفها من أىّ قطر كان لانصيب له من هذه الفوائد مع أن اللغة من حيث هى تقتضى بطبيعتها أن تكون عامة الاشتراك فى المنافع التى تقصد منها بين كافة أفراد الامة المنسوبة اليها وجب أن نصدر هذه المقدّمة بمقدمة أخرى تتضمن بيان الحاجة والوسيلة النافعة لتوحيد اللغة العربية بين سائر من يتكلمون بها حتى لايكون هنالك خلاف بين عرف التخاطب العام وطريق التدوين الخاص أو يكون الاوّل على حال يقرب من الثانى لاأقل فنقول

مقدمة

فى بيان الحاجة الى توحيد اللغة العربية والوسيلة النافعة لذلك

﴿اعلم﴾ أولا أن اللغات تعدّ من الاصول الاولية الحافظة لبقاء الامم فان لغة كل قوم انما هى عبارة عن ألفاظ تدل على ماتناله حواسهم وتدركه أفهامهم وتألفه أذواقهم وتميل اليه طباعهم وتقضى به عاداتهم وأخلاقهم وتجرى عليه معاملاتهم وسائر أحوالهم التى اقتضتها جامعتهم الخاصة بهم وكل مايدور عليه أمر الافادة والاستفادة الضروريتين لمجتمعهم انما يرجع الى هذه الامور ولهذا كانت كل لغة تحسب من خواص صفات الامة التى هى لغتها من جهتى دوالها ومدلولاتها فان الاولى لم ينطق بها سواها والثانية عبارة عما اجتمع لها من الاحوال السابقة فهى مادامت موجودة عامة التداول يتوارثها الابناء عن الآباء فلا يفقد من أحوال الامة شئ يسير ماله دخل عظيم فى حياتها وبقائها أما اذا أهملت اللغة وضاع منها مالا يمكن قيام الافادة والاستفادة الابه والحال أنها من لوازم المجتمع الانسانى فلا بد أن يحل محلها لغة أخرى تقوم مقامها فى أداء هذا اللازم ويتبعها خواصها الجديدة التى تلازمها مما يترتب عليه تغيير فى سائر أحوال الامة وهذا هو

الناموس الذى يستوجب بطبعه تعاقب الامم فى الوجود لما يظهر فيها من المظاهر الحديثة التى يتجدد لها بحسبها حكم يتبعه اسم جديد

ثم ان وحدة اللغة تعدّ شرطا لوحدة الامة ان لم نقل انها تعتبر بمنزلة الفصل المقوم لحقيقتها فان المزايا التى تقصد من تلك لاتتم الا بهذه وان الامم لاتعرف الا بلغاتها ولا تتميز الا بها فلا شئ فى الحقيقة أجمع من رابطة اللغة ولا أوثق منها ألا ترى أن من يريد التجنس باحدى الجنسيات يجب عليه وجوبا محتما أن يتعلم لغة من يريد أن ينتظم فى سلك جنسيتهم بل نرى بعضا ممن تعلموا اللغات الاجنبية بالصدفة لابقصد التجنس أكثر ميلا الى من تعلموا لغتهم وهم فى الحقيقة غير ملومين على هذا الميل فانه لم يكن عن محض ارادتهم واختيارهم بل سرى لهم بطبيعة هذه الرابطة كما أن كثيرا من الاجانب الذين تعلموا اللغة العربية مثلا وأكبوا على درسها وارتشفوا من رحيق آدابها يميلون كثيرا الى أبنائها ويستحسنون بعض عاداتهم ويصرّحون بأنهم أكثر ارتياحا الى التكلم بالعربية كل ذلك دليل على قوة رابطة اللغة وأنها تفعل فى النفوس مالا تفعله علائق القرابة والنسب

وهذا لايحتاج الى برهان بعد تسابق الامم المتمدنة الى نشر لغاتها

فى الاقطار التاسعة من أفريقا وآسيا وغيرهما بين الطوائف المختلفة لعلمهم بتأثير جامعة اللغات وقد جعلوا نشرها مقدما على الفتوحات فتراهم يتزاحمون عليه فى البلد الواحد فالسابق منهم هو السابق الى الحظوة الكبرى والغاية القصوى

وحيث ان المتكلمين بالعربية فى جميع الاقطار يعتبرون كذوى رابطة واحدة وهى اللغة العربية ولكنهم فى الحقيقة قد عدموا هذه الرابطة الشريفة حيث أصبح لكل فريق منهم لغة عامية تميزه عن غيره فلا بد حينئذ من تلافى هذا الامر باحياء هذه الرابطة ليعم الاشتراك بينهم فى المصالح والمنافع

فاللغات العامية هى بمثابة مايعترى اللغة الفصيحة من التغيير والتبديل فى بنيتها فهى بمنزلة مايصيب الجسم الصحيح من الامراض والعلل المزمنة التى تنتهى باختلاله وتلاشيه ان لم يبادره بما ينفع لايقاف الداء وقطع شأفته واللغات فى العالم كالروح للامم فهى تكلفهم فى خدمتها ماتكلفهم به المحافظة على الارواح

ان اللغات الصحيحة فى كل أمة هى التى عليها حفظ قوام الدين والعلوم النافعة وهما أساس سعادة الانسان لوعدمهما حل به الشقاء والهوان فالتهاون باللغات الصحيحة يؤدى الى انهدام هذين الاصلين وكفى بذلك خسرانا مبينا

ان عوام كل أمة وأعني بهم الذين حرموا من فوائد اللغة وليسوا من ذوى الاذواق السليمة والافهام السامية محرومون من فهم حقائق الدين لاينظرون الى نور التربية والآداب الا من سم الخياط فاذا حسبوا فى ضمن الهيئة الاجتماعية فانما يحسبون بمنزلة الآلات والحيوانات العاملة وليس لهم من الجامعة الملية الا اسم مسلم أو مسيحى أو اسرائيلى وما داموا غارقين فى ظلمات الجهل لايعرفون من الدين الا اسما ولا من الادب الا رسما فهم على الدوام يخالفون الخاصة وذوى المعارف فى المبدإ والمشرب ولا يميزون بين ما ينفعهم أو يضرهم الا مايتسابقون اليه من مآربهم الوقتية وغاياتهم الشخصية يتزاحمون عليها تزاحم الأنعام على الموارد ثم لا تنبت أسباب شرورهم ولا تنقضى غارات مفاسدهم ولا يتحركون حركة يترتب عليها قصد صحيح مادامو محرومين من فوائد اللغة

ان ترقى العلوم انما يكون بترقى اللغات وليس معنى ترقى الثانية الا تعميم الوسائل النافعة لتعليمها وزيادة العناية بها حتى لايخص بمنافعها طائفة من الناس دون أخرى فتكون للعامة كما هى للخاصة وللصناع وذوى الحرف والعاكفين على الفلاحة كما تكون للساسة والعلماء والوجهاء وغيرهم ولاأعنى بذلك أن يكونوا جميعا سواء فيها

فان

فان هذا لايتيسر حصوله مادامت الافهام مختلفة ووجهة الرغبات ميالة بطبعها الى فنّ بعينه لايتساوى منه فيها ماعداه سيما اذا كان ما اليه شدّة الميل عليه قوام المعاش فلا نقول للفلاح وذى الصنعة اتركْ مافى يديك واعكف على درس اللغة ولكنا نعنى أن اللغة هى الجامعة الكلية والرابطة القوية بين أفراد كل أمة فلا يليق بواحدمنهم أن لايكون لهمن فوائدها نصيب سيما ماتمس اليه الحاجة مما يتوقف عليه فهم المبادى الاوّلية الدينية والادبية

وكل هذا مما يحتم علينا أن نتلافى أمر هذا الانقسام الواقع فى اللغة العربية وذلك لايكون الا بتقويم أود العامية واصلاح فاسدها لتتحد وجهة المنافع بواسطة الاشتراك فى النتائج العلمية والفوائد التدوينية حيث إنه بهذا الاصلاح لايكون هنالك فرق بين مايدوّن فى الكتب وما عليه عرف التخاطب العام ولا يبقى أدنى امتياز فى مبادى التعليم العمومية الافيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة وذلك لايضرّ بأصل الغرض المطلوب متى صارت لغة التخاطب هى لغة التدوين اذ من السهل بعد ذلك أن يراعى فى التآليف سهولة العبارة بحيث يستوى فى فهمها العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم

فهذه لغة قريش مثلا لما كان لايختلف المتكلمون بها فى شئ

كانوا جميعا يفهمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتلوه عليهم
من كتاب الله تعالى وغيره من الاحاديث النبوية ولا يفوتهم فهم
شئ من شعر شعرائهم وكلام بلغائهم وهذه بعض لغات أمم أوروبا
لما كانت لاتختلف باختلاف التدوين وعرف التخاطب الا فى أشياء
لاتغير من جوهرها عمت منافع التآليف بينهم وصار ينتفع بها العالم
كما ينتفع الصانع والتاجر وتسنى للمحترف أن يؤلف فى موضوع
حرفته ما استنبطته أفكاره وأدّته اليه أنظاره وتنافس المؤلفون فى
اختيار أسهل مايكون من العبارات التى هى أكثر دورانا على
الالسنة والالفاظ المتعارفة لتكون التآليف أكثر تداولا وأعم نفعا
وخصوصا مؤلفات الادب والتواريخ وما شاكل ذلك مما لايحتاج
فى درسه الى تعلم اصطلاحات علمية فهذه لايحول بين العامى منهم
وبينها الا مجرد تعلم القراءة والكتابة ومتى تم له ذلك أخذ فى
مطالعتها من غير احتياج لموقف حيث لايجد هنالك من فرق بين
لغة التخاطب التى نشأ عليها وبين اللغة التى دونت بها هذه الكتب
بخلاف الكتب العربية مهما تباينت مواضيعها فهى بعيدة عن
أفهام العوام كبعد اللغة العامية من اللغة الفصيحة

لعمرى ان هذا الحرمان الذى يكاد أن يكون عاما بين المتكلمين
بالعربية لم يكن له من سبب سوى انقسام اللغة الذى ترتب عليه

بالضرورة انقسام الامة الى طبقتين كل واحدة منهما لا علاقة لها بالاخرى الا فى الامور المعاشية لا فيما هو من مبادى التعليم العام وليس لهذا الداء العضال من دواء سوى بذل الاجتهاد فى تلافى أمر هذا الانقسام

نعم ان الحصول على هذا المقصد المنيف يحول دون الوصول اليه عقبات جمة أهمها كون اللغة العامية قد انطبعت عليها الالسنة وصار العالم والأديب يجارى غيره فيها عند التخاطب حتى فى المجتمعات العلمية والمحافل الأدبية وفى مجامع الافادة والاستفادة والتعليم والتعلم ولكن متى تحققنا نبالة المقصد لايهولنا فى السعى وراءه مانتخيله الآن من هول هذه المصاعب وان بلغت مابلغت

ان أمرا كهذا يكون فى مبدئه صعبا ولكن الاجتهاد يزيل الأطواد الرواسخ وآفة المشروعات النافعة أن يهملها الخلف بعد السلف أو يتبادلها الجاهلون الذين لايقدرونها حق قدرها ولايؤدّونها من الاعمال ماتستحقه ولا شك أن مشروعنا هذا من أجلّ المنافع فاذا مهدنا له الآن أساسا ثابتا فلا يعدم ان شاء الله تعالى فى مستقبل أمره رجالا أكفاء يتلقونه بالصدور الرحبة والأيدى الطائلة

ان مشروعنا هذا منحصر فى اصلاح فساد اللغة العامية ومن أجلّ

الوسائل النافعة له جعل كل متكلم بالعربية على التكلم بها مع مراعاة وجوه الاعراب والأساليب الصحيحة والتحرز عن التحريف في الالفاظ بقدر الامكان وذلك لايتأتى دفعة واحدة بل لابد فيه من تعميم التمرين والتعويد وأسهل ما يكون ذلك اذا روعيت معرفة العربية الفصيحة في الفقهاء ومعلمي الاطفال الذين لم تنطبع ألسنتهم على اللغة العامية والاحداث الذين يمارسون التعليم وألزم هؤلاء المعلمون بان يمرنوهم على الخطاب بها شيأ فشيأ بحيث يكون أولا بالالفاظ المألوفة ثم يتدرج منها الى غيرها بتوالي الايام والتقدم في أطوار الاعمار

ولما كان انقسام اللغة العربية قد عمّ وطمّ جميع من يتكلمون بهذه اللغة الشريفة في سائر الاقطار وكان مالحق فريقا منهم من اضرار هذا الانقسام قد ألمّ بالجميع وكانت حاجة الكل الى تلافي أمره لايختلف فيها اثنان منهم صار من باب التمهيد لهذا المشروع الجليل

أولا أن يجب على كافة العلماء والادباء وكل من يقدرون على التكلم بالعربية مع مراعاة وجوهها المعتبرة في سائر الاقطار أن يفسروا خطة التخاطب بينهم بمراعاة وجوه الاعراب والاساليب الصحيحة حتى اذا قرعت خطاباتهم مسامع العامة وصغوا اليها وألفوها

منهم

منهم لم يلبثوا أن يقلدوهم فى هذا التخاطب وان كان أولا على غير هدى وهذا من أعظم الممهدات لاتمام هذا المشروع ولاشئ من ذلك على هداة الامة بالمتعذر أو المتعسر خصوصا وهم القدوة والجم الغفير بين الأمة وأنت تعلم أن تفصيل ما ينجم عن ذلك من الفوائد مما يضيق عنه نطاق البيان ولكن أقول بالاجمال ان هذه اللغة الفصيحة تكون بين من يتكلمون بها من أهل الفضل والادب كلمة النسب وحلية الحسب فبها يتميزون وبها يتعارفون وتصير لهم بمثابة وسامات الشرف وعلامات الامتياز

ثانيا أن يتابعوا البحث والتنقيب فى ألفاظ اللغة العامية حتى يعرف العربى منها والدخيل من لغات أخرى فما كان منها لا يهمل استعماله بعد تصحيحه وما ليس منها أهمل بالكلية حتى يصير نسيا منسيا واعتيض عنه بلفظ عربى ينوب منابه سواء كان من المألوف للعامة أو غيره

وهكذا يفعل بالأمثال والأساليب الكلامية المألوفة للعامة فيهمل منها ما كان فاسدا أو سخيف المعنى ويصلح ما يمكن اصلاحه ويقرن العمل بتمرين الاستعمال حتى مع الدوام والاستمرار تصح اللغات العامية مرقمة الخروق مرتوقة الفتوق وهذا ما دعانى لتأليف كتابى المسمى ﴿التحفة الوفائية فى اللغة العامية المصرية﴾ على شبه

قاموس مرتب على حروف المعجم يشتمل على كثير من ألفاظ العوام وأساليب كلامهم المستعملة بينهم وذكر شئ من عوائدهم وأمثالهم المألوفة على ألسنتهم للمناسبة وقد التزمت فى كثير من الالفاظ المحرفة والتراكيب الفاسدة أن أفسرها بمعناها ان لم يكن لها أصل ترجع اليه أو أفسرها بألفاظ وتراكيب تردّ المحرّف والفاسد منها الى أصله صحيحا مع شرح كثير من الامثال بما ينطبق على ذوقهم بعبارات أدبية وقد نجز من هذا الكتاب الجزء الاول ونصف الثانى وكنت أودّ لو استقصيت الالفاظ العامية التى لايعلم لها أصل فى اللغة العربية من القواميس المطوّلة لأقف عن أصولها وأنبه عليها فى أبوابها الا أن هذا العمل يستدعى فراغا تاما وزمنا طويلا ولهذا عقدت النية على التنقيح والتحرير فى هذا القاموس كلما سنحت الفرص وساعدت المقادير حتى يأتى ان شاء الله تعالى على وفق المراد

وقد قصرت هذا القاموس على المستعمل من اللغة العامية فى مصر وغالب البلاد البحرية المصرية اتكالا على أن زملاءنا الذين سيمدّون اليناييد المعونة على هذا المشروع الجليل فى سائر الاقطار العربية سينال كلا منهم بحق القسمة العادلة نصيب منه يعادل نصيبنا أو يرجح عليه فيحذو كل منهم مثل ماحذونا ويقصد وجهة ماقصدنا ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لهذه الخدمة الجليلة انه على مايشاء قدير

هذا

هذا وليكن فى علمك أن ماأصار اللغة العربية الى هـذا الانقسام انما هو ماحصل عقب الفتح الاسلامى من اختـلاط العرب بالعجم بحكم انضواء الجميع تحت لواء الدين الاسلامى المنيف وماترتب على ذلك من حصول التغيير فى اللغـة بسبب تزاحم اللغات وتباينها وما ساعد على ذلك من اشتباك لحمة الانساب والقرابات بين المختلطين حتى انه لم يمض بعد ذلك الا أمد قصير حتى تبلبل اللسان وأصبح كأنه ما كان وقد خيف عليه الضياع بعد ماتغيرت منه الابنية والاوضاع فقام حينئذ ذوو النفوس الأبية والشمائل العربية وشدّوا حيازيمهم لتلافى ماعساه أن يذهب من هذه اللغـة البقية فأطروها من الحفظ بسور ودوّنوها تحت حدود وأصول وتبع هؤلاء أناس حـذوا حذوهم ونهجوا طريقهم فأوسعوا لها فى التـدوين لتكون على أساس راسخ مكين الآن ذلك لم يحل بين عامة الناس وبين ماألفوه من التغيير فيها والتبديل اذ عمت بذلك البلوى وكان على اللغة من النوازل الكبرى حتى آل الامر بها أخيرا الى أن صارت محفوظة فى السطور لافى الصدور ومضى على ذلك أزمان ومرت عصور

لكن الله جلت قدرته قيض لهذه اللغـة الشريفـة من لايزالون يثابرون على خدمتها من أفاضل الملوك والامراء وذوى العلم من

الوزراء والنبلاء يتقدمهم أميرنا الانفم رافع منار العدل ومن
فى كل منقبة كريمة ومنفعة عمية له الطول والفضل صاحب
الدولة والاقبال والصولة والمهابة والاجلال خديوينا الهمام
(عباس باشا الثانى) حرسه الله بعينه التى لاتنام وحفظ آله
الكرام ومن ينهج سبيله السوىّ من رجال حكومته الفخام
على مرّ الليالى والايام فانه أيده الله منذ أن جلس على الاريكة
الخديوية وهو يلحظ هذه اللغة وغيرها من المعارف العمومية بعين
الأهمية اعتناء بتعميم تعليمها بين الرعية حتى أصبحنا نفاخر
بالمدارس الاهلية فى سائر العمالات المصرية

وما زالت هذه اللغة تنمو فى مهد التعليم حتى بلغت أشدّها وملكت
رشدها وبقدر مابلغته من النمو والظهور صار للغة العامية من المحو
والدثور وهكذا بعد أن كان الناس ينكرون اللغة الفصيحة صاروا
يعدون استعمال العامية من العار والفضيحة وبعد أن ذاقوا من
الفصيحة أحلى مذاق وحاق بأذواقهم من العامية ماحاق وهم
يغضون عنها الطرف غضا ولايولونها قبولا ولارفضا أصبحوا
يتساءلون عنها ليتوسلوا الى الخلاص منها وهذه عناية أخرى
ومنة كبرى ترفع من قواعد هذه اللغة بنيانا وتجعل لها بين
الخليقة شانا

وإنا بلسان كتابنا هذا ننشر من عبير الثناء ماينفح عطره ويضوع نشره ويخلد فى صحائف التاريخ ذكره على مايبذله سراة الامة وأعيانها وأماجدها وأركانها من نفائس المكافآت وأنواع المبرات لتلامذة المدارس الحائزين قصب السبق فى مضمار الفنون العربية فان التسابق الى هذه الاعمال الخيرية التى هى عنوان الغيرة العربية والنخوة الوطنية مما يزيد هذه اللغة الشريفة اعتبارا ويورثها مجدا وفخارا لعمرى وان كان هذا مما يعدّ من نوافل الخير المندوب اليها ولكنه فى الحقيقة يحسب فى عداد الفروض والواجبات فانه مما يعود على الامة بالشرف الباذخ والعز الشامخ على أن الله تعالى قد سخر لهذه اللغة من زادها فضلا على فضلها اذ صيرلها فى هذا العصر الاخير شأنا فطار صيتها الى الامم الافرنجية فجعلوها فى المحل الاوّل وعوّلوا على درسها ونشرها كل معوّل وتنافسوا فى طبع كتبها النفيسة واهتموا أوّلا بالكتب التى هى لقوام بنيتها كالاعضاء الرئيسة فحازت بذلك فتحا جديدا وعمرا مديدا وحظا سعيدا ومن باب تبادل التعاون على خدمة هذه اللغة قد لحظت فى تأليف كتاب التحفة خدمة انسانية أخرى اذ رأيت أنه نافع للذين يهمهم درس اللغة العربية من الاجانب الذين لايميزون بين العامى منها والفصيح

وحيث كانت خدمة اللغة العربية هي المقصودة بالذات من هذا الكتاب وكانت هذه الغاية الشريفة والوجهة المنيفة لاتتم فائدتها ولا تظهر أهميتها الا ببيان ماترتب على انقسام اللغة الى عامية وفصيحة وذكر أنفع الوسائل لتوحيدها وجمع شتيتها بواسطة المشروع الذى شرحناه وبيان حال اللغة العامية بالقياس الى الفصيحة وتفصيل بعض الاسباب النافعة لترقية هذه حسب الامكان وكانت مراعاة أصول الكتابة العربية واستكمالها لدى كل كاتب من تتمة مطالب اللغة أيضا وكان التكلم على اللغات من حيث كونها توقيفية أواصطلاحية أشد مناسبة لهذه المواضيع استدعى ذلك كله أن نصدر كتاب التحفة بهذه المقدمة الكافلة ببيان هذه المطالب وقد فصلناها الى مقدمة وأربعة فصول فالمقدمة فى بيان الحاجة الى توحيد اللغة العربية كما مر عليك

الفصل الاول فى ذكر بعض الاسباب النافعة لترقى اللغة العربية وتعميم الانتفاع بها

الفصل الثانى فى أنه يجب على الكاتب مراعاة أصول الكتابة العربية وذكر نبذة من آلاتها وطرفة من تاريخها مسلسلة الاسناد الى الزمن الحاضر

الفصل الثالث فى الكلام على اللغة العامية من حيث مايتعلق

بها من الفنون العربية لتعلم حالها بالقياس الى اللغة الفصيحة ويتبع هذا الفصل نبذة فى الرد على ابن خلدون فى زعمه أن لغة العرب فى عهده تساوى لغة مضر الا فى حركات الاعراب

الفصل الرابع فى اختلاف العلماء فى اللغات هل هى توقيفية أو اصطلاحية واستيفاء الدلائل القاطعة بأنها توقيفية

وقد تحرينا فى بعض هذه الفصول النقول الصحيحة والنصوص الصريحة فجاءت كلها منطبقة على ماجادت به القريحة وانى ماعولت فى الكثير من مطالب هذه المقدمة الا على سانحات الافكار وصحيحات الانظار فكانت بحمد الله على طرز ماحيك على مثاله ولا نسج على منواله وبالله التوفيق

الفصل الاول فى ذكر بعض الاسباب النافعة لترقى اللغة العربية

﴿اعلم﴾ أن اللغة العربية لها أسباب خصوصية بها ترتقى الى أوج الكمال وتستوفى نصيبها من المدنية والحضارة فمن هذه الاسباب أن يراعى فيها حالة هذه الحضارة فيختار لها الكتاب من رقة الاساليب وعذوبة التراكيب وسهولة المآخذ الكلامية مابه تضارع حالة الامة وأن يراعى فى طرق البيان من تشبيه وتمثيل وكناية ومجاز وتورية الى غير ذلك مايشير الى حالتها الراهنة ويومئ الى مبلغ قوتها وما وصلت اليه يدها من الصنائع المختلفة وما

شرعته من طرق العدالة وما هو ذائع فيها من الاخلاق الفاضلة وفاش من ضدها لتكون الحالة العمومية نصب عين كل مطالع ومطمح فكر كل قارئ وسامع فيكون كل مايكتب أو يقرأ أو يسمع من هذا القبيل سواء كان من ضروب التعيير والذم أو من نوع الثناء والمدح أدعى لاستمالة النفوس الى محامد الفعال ومحاسن الخصال وأردع لها عن مساوى الاخلاق وسفاسف الامور

فمثلا اذا أراد الكاتب التمثيل بشئ لتقرير معنى فى الاذهان فان كان فى موضوع المدح تسنى له أن يشبه وضع الشئ فى محله بالحكم العادل مثلا وصورة الكمال بالقاضى الفاضل والحزم برجال الشرطة والامانة بالصيرفى والخازن والثقة بالامير والنصيحة بالمشير والصداقة بالكاتب والمضاء فى الاعمال بسير قوة البخار الى غير ذلك وكأن يقول فيمن يلوح على محياه سمة الفرح والمسرة مثلا كأنه أمير مغتبط باقبال الأمة عليه كأنه أمة نالت حظوة بأميرها ماأشبهه بمن أحرز باخلاصه فى خدمة الأمة نباهة الصيت وحسن السمعة . كأن الأمة وكلت اليه عملا جليلا فقام به حق القيام فأنزلته منزل الاجلال والاكرام . كأنما بشر بولاية منصب رفيع عن كمال أهلية واستحقاق . كأنما رأى أنباء آثاره النافعة مسطرة فى صفحات الجرائد مطرزة بحسن الثناء فهش لها وبش . كأنه

أحرز أجلّ مكافأة على عمل جليل . كأنه نال أنفس جائزة على إحكامه فى صنعه وتبريزه فى فنه . كأنه يقبل عليك اقبال من يحب الخير لأبناء وطنه . كأنه سمع حديثه بأنه من ذوى الجدّ والاجتهاد . كأنه رئيس جبل على المواظبة فجعلها على الدوام سنة متبعة . كأنه عامل لم يؤخر لغده عملا واجبا الا أدّاه . كأنه راجع سجلّ أعماله فلم يجد فيه لوثة تسوّد وجه أمانته . كأنه علم منزلته فى القلوب فحاسب نفسه على حسن السيرة وطهارة السريرة . كأنه عرف حرّية ضميره فهو عنه راض . كأنه علم بأنه أينما حلّ يقابل باحتفاء واحتفال . كأنه عرف بنبالة المقاصد وسلامة النوايا فصار قرير العين مرتاح الفؤاد . كأنه لم يكاشف ضميره بسيئة فيوبخه عليها . كأنه الآن يجنى ثمار أعماله النافعة ومقاصده النبيلة كأنما سأله القضاء . هذا الامر وقع عنده موقع الرأفة فى مجلس القضاء . كأنما حكم له لا عليه . كأنه كاتب أصاب الغرض ووافق المراد . كأنه بشر بحظوة اخوانه فلاح عليه فرح واستبشار

ثم يقول فيمن يلوح عليه علائم القلق والاهتمام مثلا

كأنما سيق الى مجلس القضاء . كأنما نفذ عليه حكم القضاء . كأنما فصل له القضاء ثوب عقاب على قدر جريمته . كأنما قضى على برىء كأنه مرتش لا يهدأ له بال ولا يقرّ له قرار . كأنه مستبدّ بين أسرار

كأنه كاتب يكتب عريضة عقابه بيده . كأنه بات من رئيسه على حذر . كأنه خان الامة والوطن . كأنه أمة ضاعت حقوقها . كأنه شرقيّ يطلب حقا من غربي . كأنه تلميذ ضاع اجتهاده . كأنه فلاح بين دائنيه الاجنبيين . كأنه مرؤس لمن لايرعى له إلا ولاذمة . كأنه معلم أطفال عزل بالاهمال . كأنه ممن خانه جفنه وجفى عليه حظه . كأنه أبيّ النفس يفضل الحرمان على ملابسة الهوان . كأنه صانع ماهر لايرى لصنعه رواجا . كأنه محق بين مبطلين أومبطل بين محقين . كأنه نشأ فى منشا وخيم ومربى ذميم حتى اذا كبر فاجأته المعارف العصرية بعالم يكن له فى حسبان فهو يئن منها أنين المريض ويعامل معاملة السليم . كأنه ظالم كلف بالعدالة أوعامل لازم البطالة . كأنه شريف قضى عليه القانون على غير عادة . كأنه مهدّد فى مركزه فهو يتوقع الأذى . ويغض جفنه على قذى . كأنه أصبح غرضا لسهام الغايات والاغراض . كأنه عزيز النفس بين متملقين . كأنه لم يتوسم من مستقبله نجاحا . كأن راتبه دون مايستحق . كأنه موظف فى غير مارشح له . كأنه مبذر ضاعت أمواله وساءت أحواله . كأنه موظف مدين . كأن فى عهدته كل مدخر ثمين . كأنه مسؤل عن أمر عظيم . كأنما أعلنه غريم كأنما خابت مساعيه . كأنه فى خيفة من حاسديه . كأنما سخط

عليه معلوه . كأنما حكم عليه مختصموه . كأنما يحاول اصلاح فاسد وتقويم معوج . كأنما يتولى أمر أمة جاهلة . كأنما ظهر عليه الغش والخديعة . كأنما أضاع وقتا نفيسا . كأنما يتعلم فى زمن المشيب . كأنما يعادى عشيرته . كأنما يغالب طبيعته وكذلك يحذو حذو الأمثال العربية بعبارات تجرى مجراها كان يقول مثلا

أحبّ من وال لرعيته أطوع من رعية لواليها أعرف بالامور من وزير أرجح عقلا من مدير أجمل من رعاية الذمّة أحسن من دوام الوفاء ألحن فى الحجة من محام أبين خطابا من خطيب أنطق من خطيب أكثر موادعة من رئيس ألين عريكة من رئيس أعلم من قاض أهدى للصواب من قاض أثبت جاشا من قاض أصدق من قاض أروغ من مزوّر أظلم من اص أصدق من كاتب أحق من مقامر أيقظ من خفير أحذر من خفير أحرص على الافادة من معلم أمهر من صانع أحلم من قاض أروح من حكم عادل أثقل على النفس من حكم جائر أخبث من رشوة أذل من مرتش أحرص من مراقب أنفذ من معاون أمضى من مساعد أمشى من ساع أسمع من بوليس أنمّ من مخبر أوعى من تلميذ أطوع من جندى

لقائله أخوف من سارق أذل من متملق منافق أكثر خبرا من ذى خبره أنظف من سجن أشهر من مرافعة أبرأ ساحة من متهم لاشاهد عليه أسمع من تليفون أنم من تليفون أنم من تلغراف أوجز من تلغراف أحفظ من فونغراف أبصر من مكرسكوب أضل من باللون أضوأ من كهرباء أكتب من مطبعة أسرع من وابور أشهر من صحف الاخبار أنم من صحف الاخبار أجوب للآفاق من صحف الاخبار أثلم عرضا من خمار أبهج من زينة أضيع رشدا من سكير أوقح من مكارى أوقح من مخنث أثلم عرضا من بغى أعرف بطرق الخنى من قواد ألح من شحاذ أسمج من شاهد الزور أوبأ من كوله أشأم من كوله أعدى من كوله أوبأ من مستنقع أبخس من موازين الباعه أخس قدرا من حشاش أجمع من بنك أعرف بالعقاقير من صيدلى أشجع من جندى أقدم من بوليس أحزم من بوليس أحفظ للأمن من بوليس أكثر تجسسا من بوليس أكذب من رمال أكذب من دجال أشد إلحاحا من سمسار أعرف بمواقع الغش من دلال أقذر من لوطى أدنى همة من زير نساء أحفظ للعدل من رجال القضاء أحفظ للحق من محكمه أضر على الامن من سكان البوادى أخفى من

معرفه

معرفة الجانى بين سكان القرى أكثر نهايات من مشايخ القرى
أكثر شغبا من مشايخ البلاد أقرب للقوضى من سكان القرى
أعدى من لص أشق حالا من متكفف أردع لظالم من قانون
أعرف بالناس من سياح أعرف بالبلدان من جغرافى أدرى
بالسير من مؤرخ أكيس من سياسى أصنع من مصور أنبه
من رياضى أبغض للتقليد من طبيعى أكثر تنقيبا من طبيعى
أعرف بالخواص من كيماوى أشد احتياطا من سياسى أعرف
بالامم من سياسى أغلط من مهندس أحسب من ميقاتى
أعرف بالمواقيت من فلكى أشهر من مخترع ألين عريكة من
مؤدب أهيب من مؤدب أسمح أخلاقا من معلم أساس
قيادا من متعلم أبكى من نائحه أكثر تجارب من طبيب أطيب
نفسا من طبيب أرفق من طبيب أكثر جولانا من عربه
أوسع دائرة من ديوان أهم من مصلحه أجمع من مكتبه أنفع
من مكتبه أطب من مستشفى أهيب من جيش أعجب من
متحف أحفظ من متحف أعلى من منار أهدى من منار
أدل من بوصله أسير فى الآفاق من ملاح أعرف بطبيعة
الارض من فلاح أعرف بالابان من مزارع أسوم من تاجر
آهل من مدرسه أنفع من نافعه اذوق من طاهى أسرع

حركة من مشعوذ   أحكى من مشخص   أوعظ من تياترو
أطلق سراحا من رقيق   أفسد أخلاقا من خادم   أنفس من
عرض مخترع   أجل من صنعة مبتدعه   أجدى من طريقة
متبعة   أحسن سمتا من فقيه   أعرف بالعوائد من مشرّع   أسلم
خطأ من أصولى   أسمج من فضولى

وهكذا ينهج فى طرق البيان من تمثيل وتشبيه وتورية وكناية وتعريض بما يشير الى المبتكرات الحديثة والمخترعات الجديدة ويومئ الى الاوضاع وسائر الاحوال التى تحسب فى تاريخ الامة سواء كانت من المناقب أو المثالب   وبذلك تكون اللغة قد استوفت حظها فى قسط عظيم من حالة الحضارة الحاضرة ولبست بذلك ثوبا قشيبا واطرحت أطمارها البالية التى لم يزل طراز تشبيهاتها مثلا مجهولة الاطراف بالغول والعنقاء والخشف والجؤذر ورضوى وثبير والغزالة والغزال والاسد والشمس والبدر والهلال والنجم والغمام الى غير ذلك مما يعد استعماله الآن غير ملائم لحالة الامة الحاضرة بعيدا عن مثل أغراض الكتاب الذين لهم فى كل مقام مقال ينسجون الكلام على منواله   ويراعون به فى كل زمان مقتضيات أحواله   ولهذا يسمون أمراء الكلام بين الانام

وكما يراعى فى البيان التمثيل بما فى أنواع الصنائع وغيرها من

المحسنات

المحسنات والمبتكرات كذلك يراعى حالة الاحساسات والعواطف الصادقة التى يتجدد لها فى كل زمن منازع وأميال تختلف اليها وتكلف بها كلف العاشق بالمعشوق فلا يجعل البيان مفعما بالنفاخ الطنانه والشقاشق الرنانه فى معرض المديح مثلا إرضاء لبسطاء العقول عما لا يعده ذوو النقد والاستبصار الا من باب الخديعة والتمويه على النظار احتيالا لقضاء الاوطار بل يراعى فيه ماتميل اليه العواطف والأميال الصادقة حرصا على اجتناء الفوائد النافعة من أبوابها وصونا لناموس الآداب على طلابها فيصف كل فرد من أفراد الناس بخواص صفاته ومزاياه التى ينبغى أن يكون متصفا بها حريصا على حفظها حسبما تقتضيه خصوصيات مركزه وواجباته الطبيعية التى أهلته لأن يكون عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعيه

وكذلك لا يتجاوز فى شرح المثالب أيضا حدا يخرج به عن حقيقة الواقع فان ذلك لا يكون داعيا لكبح النفوس عن غيها كما يتوهمه الواهمون بل قد يكون سببا يدعوها الى الاسترسال فى طرق الغىّ والضلال والاصرار على منكر الفعال وحجة لمن يرمى بهذه المثالب على براءته منها سيما اذا كان هذا التغالى فى وصفها قد تضمن ذكر مايستحيل وقوعه عقلا أو عرفا وان صدق من بعض

الوجوه فان الدعوى اذا تطرق اليها الفساد وإن من وجه واحد كانت برمتها أقرب الى البطلان فالمدح والثلب ان خرجا عن حد الحقيقة كانا عقيمي الفائدة بل صارا الى الضرر أقرب وبفساد الاخلاق أولى وأليق وهذا باب مهم يجب الاعتناء به خصوصا فيما يقصد منه تهذيب النفوس وتثقيف العقول لاسيما فى الامم الحديثة النشأة فى المدنية وقد ذم الله تعالى الشعر والشعراء فى كتابه العزيز فقال سبحانه (والشعراء يتبعهم الغاوون) الآية لما كان غالبه مبنيا على الاغراق والغلو فى المدح والذم حتى قيل ان أعذبه أكذبه ونزه الله عنه كلامه ومقام نبيه الكريم فقال جل وعلا (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) فكل كلام مبنى على الغلو الذى يخرج به عن دائرة الصدق شعر مذموم يجب تجنبه توقيا من المحذورات التى منها ماشرحناه آنفا

ولقد عمت وصمة الاغراق والغلو فى المدائح والمثالب بين كثير من الكتاب حتى صار لايعد الكلام بينهم بليغا الا اذا توفرت فيه هذه الصفة ولهذا السبب اتهم كثير منهم بعدم الصدق والامانة وسقطت محرراتهم عن درجة الاعتبار وصار كل ما يروى عنهم أو يسند اليهم لايخلو من المطاعن والمظان وكانت هذه الطريقة بعينها من أعظم الموانع لتقدم صناعة الكتابة وارتقائها اذ كانت هى الحاملة على

أن يلتزم فى الانشاء معاناة التكلف والتعسف فوق الحاجة وستقف ان شاء الله تعالى على مضار ذلك فى الفصل الثالث من هذه المقدمة

ومن أسباب ترقى اللغة أن يراعى فيما يكون من التآليف المعدّة لتعليم الفنون العربية أقرب الطرق وأسهلها وأوفاها وأشملها وأن يكون اختصارها وتطويلها بحسب درجات المتعلمين بحيث يكون التعليم للمتعلم كالغذاء للطفل يزاد عليه شيأ فشيأ كلما تقدّم فى السن وان تكون هذه المؤلفات مشتملة على كثير من الشواهد العربية والامثال الادبيه واللطائف التاريخية من منثور ومنظوم لينتقل المتعلم من شاهد عربىّ الى مثل أدبىّ الى طرفة لطيفة الى نادرة غريبة فيخف عليه عبء التعليم وتنشط نفسه اليه ويكون مايتعلمه أثبت فى ذهنه ويستعدّ بذلك للدخول الى صناعة الكتابة والانشاء فان جعل هذه المؤلفات قاصرة على سرد القواعد خالية من الشواهد والأمثال الا مايكون من قبيل ضربت بزيد وضرب زيد عمرا مما يصيربه التعليم جافا عقيم الفائدة وهذا هو السبب الوحيد الذى كسدت به صناعة الانشاء وصير الدخول اليها لطالبه من أبواب مخصوصة بعد استيفاء الاحاطة بالفنون العربية ولا يخفى أن جعل التعليمين على قسمين مستقلين بلا حاجة تدعو اليه مادام هنالك مندوحة لغيره من باب الشطط

والتعسف وأنت لواطلعت على كتب المتقدمين من علماء العربية الذين شيدوا معالمها ورفعوا قواعدها لرأيتهم حذوا فيها على مثال صير التعليمين ممتزجين امتزاج الروح بالبدن وهكذا فان الوسائل الصحيحة مستلزمة لغاياتها بالضرورة ولاشك أن البيان الصحيح بجميع ضروبه هو الغاية المقصودة من تعلم الفنون العربية

نعم ان اختيار أفضل الاساليب لهذه المؤلفات مما يحتاج فيه الى نقد وشدة تعن وحسن روية واشتراك فى الرأى وتوافق فى النظر لان تغيير الاوضاع المألوفة الى طرق ملائمة لافهام القاصرين فى كل حال من أحوال التعليم مع مراعاة مايجب لكل مقام يستلزم أن يكون الواضع ذاموهبة سامية يقتدر بها على الابتكار والاختراع ولاشك أن الفنون العربية تختلف فى ذاتها وبالنسبة لمدارك المتعلمين فمنها مايحتاج فهم مطالبه الى تخيل كثير من المعانى العقلية وتعمل فى المعنويات أكثر من اللفظيات كفن البيان والمعانى وبعض البديع ومنها مايرجع تعمل الفكر فيه الى الامور اللفظية أكثر من المعنوية كالنحو والصرف والعروض ولا شك أن كل مايتعلق باللفظيات يكون أقرب الى الفهم مما يتعلق بالمعنويات فلا بد أن تكون عناية المعلمين بالثانى أعظم فيدخلون اليه من أبواب يألفها الطالب ويتوسلون الى المباحث الخصوصية بالعموميات فيبدؤن بها

ولا

ولايضرّهم بشئ خروجهم عن سنن المتقدمين فى أكثر المطالب والا فكيف يفاجأ الطالب المبتدئ أوّلا بتعريف المجاز مثلا بانه (كلمة مستعملة فى غير ماوضعت له لعلاقة مع قرينة مانعة عن ارادة المعنى الاصلى) من قبل أن يعرف ماهى الكلمة وما هو الاستعمال وما يكون منه حقيقيا أو مجازيا وكيف يتسنى له أن يعرف العلاقة من غير أن يتقدم له كلام فى التشبيه وأركانه التى منها وجه الشبه وكيف يباغت باقسام التشبيه من غير أن يعرف الامور الحسية والمعنوية ومن أين يتأتى له معرفة القرينة بدون أن يعرف الغرض المقصود من استعمال المجاز وانه لايتم الابذكر مايمنع من ارادة الحقيقة فاذا أحاط بهذه الامور كلها جاز حينئذ أن يقال له ان المجاز هو الكلمة الخ

ثم قبل الدخول معه فى الكلام على أقسام الاستعارة لابدّ عليه أن يعرف الجامد والمشتق من الاسماء ثم اذاعرف المعنى المستعار منه والمعنى المستعار له سهل عليه أن يعرف لوازم كل منهما وتسنى له حينئذ معرفة الترشيح والتجريد وهكذا الحال فى المجاز العقلى يستدعى أن يمهد له أوّلا بتعريفه الاسناد من حيث هو ثم تقسيمه الى حقيقى ومجازى ثم التدرّج به من ذلك الى ذكر العلاقات على اختلافها فاذا بلغ الى هذا الحدّ من علم البيان فلا إخاله يجهل أن

الحقيقة والمجاز على اختلاف ضروبه انما هما سبيلان لمعرفة أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة الدلالة وضوحا وخفاء فقد آن أن يقال له حينئذ ان البيان هو (علم بأصول يعرف به كيف يؤدى المعنى الواحد بطرق مختلفة الوضوح فى الدلالة) اذ لو قيل له ذلك حال شروعه فى الفن وكاف وقتئذ بمعرفة هذا الحد أو مايكون من قبيله لعدّ من باب التكليف بما لا يستطاع ولقال فى نفسه انه اذا كانت هذه حال مبادى الفن الاولية فكيف بمسائله الثانوية فيغل فهمه ويفل من نشاطه ولا يتوهم الاصعوبات داعية حتى اذا ورد عليه بعد ذلك شئ من المعلومات له عدّها من الالغاز والمعميات وناهيك بتأثير الاوهام فى النفوس

ولا يخفى أن التعلم انما هو نوع من أنواع حركة الفكر من المعلومات الى المجهولات فعلى المعلم حينئذ أن يأتى المتعلم أوّلا من ناحية مايعلم توصلا به الى مالا يعلم وأن يراعى حالة الارتباط بين المعلومات ليتأدى التعليم على وجه تام ويلزم أن يراعى أيضا فى ترتيب فصول كل علم ومسائله مابينها من المناسبات وكلما كانت هذه أبين وأوضح كان التعليم أسهل وأنفع والعكس بالعكس وعلى كل حال فالبدء بالعموميات التى هى فى قوّة المعلومات ان لم تكن منها بالفعل أمام كل علم وكل مطلب أمر لابد منه لسير التعليم على النهج الطبيعى

وحيث ان كتب التعليم المذكورة يجب أن تكون على أسلوب يوافق الاذواق المختلفة والمشارب المتباينة فلا ينبغي حينئذ أن يتولى تأليفها شخص واحد سيما وان اختيار الامثال والشواهد التي تكون خلال بيان القواعد مما لاتستقل به حافظة واحدة ولا يعتمد فيه على ذوق واحد فاذا صارت على هذا الاسلوب أصبحت كفيلة بالفوائد وافية بالمقاصد والله الموفق والهادى الى صراط مستقيم

ومن أسباب ترقى اللغة اتساع نطاق التعريب وهو نقل الكتب العلمية المفيدة والاسفار النافعة من لغاتها الاجنبية الى اللغة العربية ليعم تداولها ويسهل تناولها وليس من واجبنا الآن أن نعين ماتجب العناية به أولا من هذه الكتب على اختلاف فنونها فان الميل الى كل نوع منها يختلف باختلاف الرغبات فمن الناس من يميل الى مايتعلق بالصنائع ومنهم من يميل الى مايختص بالشرائع والسياسة ومنهم من يرغب فى الكتب الزراعية أو الطبيعية أو الرياضية أوالطبية الى غير ذلك وهذا الميل تارة يكون طبيعيا وتارة يتسبب عن الاشتغال بما يتعلق بفن خاص فان الزارع مثلا يميل الى فن الزراعة والصانع الى الصناعة والمتشرع والسياسى الى التشريع والسياسة وهكذا

ولاشك أن كل فن تمس اليه الحاجة وتستدعيه المصلحة العامة يعدّ من الامور الضرورية لسعادة الامة ولا يقدم غيره عليه الا بالاعتبار ومتى كان الميل على اختلافه حقيقيا عاما فى الافراد انبعثت النفوس بقوة قاهرة الى تحصيل المرغوب وكان هذا ما يعبر عنه بالنهضة الصادقة الوطنية فتبادر كل طائفة الى ما يبل غليل شوقها بتعريب كتب الفن الذى تشتد حاجتها اليه فلا ترى حينئذ الا لجانا تنعقد ومجالس تحتفل وعمالا تباشر الاعمال بقوة ونشاط وصدق واخلاص فتقوم من فضلاء المقننين مثلا أمة تدعو الى تعريب الكتب النافعة لفن التقنين وتعززها طائفة المحامين ثم يحذو المزارعون سيما أرباب الدوائر الواسعة حذو هؤلاء فينشرون النافع من الفنون الزراعية باللغة العربية على كافة من يتولون أعمال الزراعة ويقتدى بهم الصانعون والرياضيون والطبيعيون كل بحسب ماتوجبه عليه حرفته ثم يعزز العلم بالعمل تتميما لجلة هذه الرغائب الجليلة والمشروعات النبيلة ان ذلك سهل يسير على ذوى البصائر والالباب من فضلاء الامة وأعيانها ووجهائها

واقد سرّنا وسرّ كل من يريد الخير لأبناء وطنه ماتلقيناه عن أفواه الجرائد من تأليف جمعية جليلة من أعيان الوجهاء والفضلاء تحت رياسة العالم الفاضل الكامل سلالة السادة الامجاد الاستاذ محمد

توفيق البكرى ووكالة كل من حضرتى العالمين الفاضلين الاستاذ الشيخ محمد عبده والاستاذ السيد محمد محمود الشنقيطى وقد علمنا أن مقصدها الذاتى خدمة الفنون العربية فبشرنا بأن سيكون لها عناية باتساع نطاق التعريب وليس هذا بالامر اليسير فى جانب أعلام الفضائل أعضاء هذه الجمعية الجليلة اذ كلهم ممن يحرص على خدمة اللغة العربية ببذل النفس والنفيس ولا أقدم لك كلاما تعلم منه أن التعريب فى اللغة العربية من أجل فوائدها فأقول

لا يخفى أن الامم كما يتبادلون المنافع المالية بواسطة التجارة فهم يتبادلون الفوائد العلمية بواسطة اللغات فمن جهة كون اللغات من خواص صفات الامم الحافظة لبقائها كما مر عليك فى المقدمة لا تقل أهميتها عن القوة الحامية ومن جهة كونها هى الواسطة لتبادل الفوائد العلمية ليست أقل أهمية من السفن وسائر معدات النقل التى تأتينا بالارزاق وعروض التجارة من البلاد القاصية والاقطار المختلفة وشتان ما بين اللفظين وبون بعيد بين تبادل المنفعتين فان اللغات لا يقل حديدها ولا يقل عديدها والارزاق وعروض التجارة تسد الحاجات الوقتية والفوائد العلمية تبقى ببقاء المصالح الدائمة فكم من كتاب جليل نقل الى اللغة العربية من لغته الاصلية فى غابر الازمان وبقى على مر الليالى والايام محط أنظار العلماء وأعمل

السياسة والصناع والحكماء يستمدون منها دواء الارواح وغذاء العقول فهذه فنون الحكمة والرياضة والطب وغيرها المنقولة من لغاتها الاجنبية كم جنت منها الامة العربية من الفوائد وعاد على حضارتها ومدنيتها من العوائد فانظر الى تاريخ خلافة المأمون الزاهرة بالعلوم ومن قبله ومن بعده من الخلفاء الراشدين فما كان يخلو زمن فيها من العلماء النابغين فى اللغات الاجنبية الذين كان همهم قاصرا على التعريب

وعلى هذا المبدا الشريف عمل الامم فى العصور الاخيرة اذ أصبحوا يتوسعون فى تعليم اللغات كتوسعهم فى أعمال التجارة والزراعة اذ علموا أن متجر اللغات مقدم على متجر الصناعات بل أصبحوا يتناهبون لغات المتبربرين توصلا لاقتناص ماعساه يكون فيها من الفوائد العلمية أو التاريخية وقد جاء الدور المهم للغة العربية فباتوا يعكفون على درسها شغفا باستكناه أحوال الامم العربية وكشف النقاب عن علومها وآدابها وأيامها وعوائدها وأخلاقها فترى الواحد منهم اذا ألم بهذه اللغة بعض الالمام كأنما فاز بالسعادة الابدية فاذا عثر على كتاب فيها معنون بما يبحث عن موضوع مستغرب فكأنما نشط من عقال وظفر بالضالة المنشودة ولكنه اذا كان قاصرا فى اللغة يقرع سن الندم على أن لم يكن له نصيب منها الا بقدر ما

يفهم الخطاب أو يردّ الجواب بلغة العامة ومع هذا فلا يثنيه اليأس عن درك أمنيته بترجمة ما فى الكتاب الى لغته بعد عناء شديد ونصب ما عليه من مزيد وكل ما يعدّه من فوائده الخصوصية فى هذا السبيل قليل بالنسبة لما يقصده من خدمة لغته العمومية

فالقصد الاصلى من تنافس الأمم فى تعليم اللغات انما هو تبادل النفع العام والاشتراك فى العلوم والمعارف حتى صارت الترجمة من أهم ما يلتفت اليه تعليما فى سائر المدارس العالية ورحم الله ساكن الجنان المغفور له أفندينا (محمد على باشا) الكبير سيد العائلة الشريفة الخديوية اذ نظر الى هذا المبدا الشريف نظر الاهتمام وبعث المبعوثين الى البلاد الاجنبية حتى برعوا فى اللغات ثم أناطهم بتعريب كل ما تمس اليه الحاجة من الكتب فى سائر الفنون النافعة حتى كان لهؤلاء المعربين فى زمنه وبعده شهرة عظيمة بما قدمت أيديهم من الآثار الجليلة فهذه آلاف من الكتب النفيسة التى عربوها لم تزل متداولة بيننا الى الآن اتسع بها نطاق المعارف وزادت اللغة غنى وغناء

نعم ان من تخرجوا من المدارس الأميرية وغيرها من أبناء البلاد فى هذا العصر الحاضر جمّ غفير غالبهم على علم تام باللغات الاجنبية ولكن القليل منهم هم الذين وفقوا الى خدمة اللغة العربية بما

آتاهم الله من مزية الفضل والأدب فعرّبوا كثيرا من المؤلفات الجديدة والمكتشفات الحديثة في فنون مختلفة من لغات شتى فجزاهم الله عن الوطن وأهليه والعلم ومزاوليه أفضل الجزاء ولا زالت الايام ترينا من آثارهم الجليلة مايحلي تاريخهم بطراز الثناء والحمد فان مثل هؤلاء الافاضل قد وقفوا على حكمة تعلم اللغات الاجنبية فجاءت أعمالهم على وفق الحكمة والسداد وخدموا الحكومة السنية بما أنفقت عليهم من أموالها وقدّمت اليهم من الخدمة في سبيل تعليمهم وتهذيبهم

أما الكثير من غير هؤلاء الذين قد آتاهم الله وقتا واسعا وشبابا ناضرا وفراغا من الاعمال فانهم اكتفوا بما نالوه من فضيلة التكلم بهذه اللغات التي تعلموها اذ كان التكلم بها يعد من الفضيلة على زعمهم وكان أولى لهم ثم أولى أن يجاروا اخوانهم في الاعمال الفاضلة فيكون لهم من آثارهم نصيب يذكرون به فيشكرون فان كانوا ممن لايحسنون التعريب لقصورهم في اللغة العربية ويتخذون ذلك ذريعة للتخلف عنه قلنا لهم ان من يعرفون هذه اللغة كثير والتعاون على النفع العام محبب اليه في كل ملة وهدر زمن الشباب غواية وضلال ولا عار ولا شنار اذا قيل ان فلانا الافندي اشترك مع فلان الشيخ مثلا في تعريب كتاب أو رسالة أو رواية أدبية

أو حكاية تاريخية أو مقالة سياسية أو غير ذلك مما تتشوّفه على الدوام أنظار القرّاء وترمق من يأتى بشئ منه بعين الاعتبار والاجلال على أنك اذا علمت أن التعريب هو الفائدة المقصودة بالذات من تعلم تلك اللغات سواء فى ذلك تعريب الكتب والرسائل والروايات أو التقارير والمخاطبات ونحو ذلك مما تمس اليه حاجة المصالح العمومية أو الخصوصية فحينئذ لا تكمل هذه الفائدة الا بتعلم اللغة العربية ليقتدر المعرّب على افراغ المعانى فى عبارات صحيحة خالية من لحن الاعراب وافية بأداء المراد صراحة لا خفاء فيها ولا التباس مع المحافظة على الاصل المعرّب هذا أقل ما يمكن أن يكتفى به المعرّب فى مهنته فان حصل من اللغة العربية على مادون الكفاية بان كان لا يعرف منها الا بمقدار ما يعرف الاجنبى من لغة العوام فلا يصح أن يطلق عليه اسم معرّب وتعين عليه أن يبادر الى تحصيل ما يقوم بحاجته منها والا فليندب زمنا أضاعه فى تعلم لغة أجنبية لم يكن من ذويها ولم يقطن بين أهليها وليس المراد أن المعرّب لا يصح أن يطلق عليه هذا الاسم الا اذا بلغ الدرجة العليا فى صناعة الانشاء حتى صار من نظراء ابن المقفع ومن كان يجاريه فى فنه فان لهذا زمنا مضى لم يبق منه الا تعليل النفس بذكراه وتمنيها رجع صداه

نعم ان هـذا العصر سيكون انشاء الله تعالى فاتحة اقبال لاتساع نطاق التعريب اذ نبغ فيه بين العارفين بهـذه اللغات عدد ليس بالقليل فى صناعة الانشاء العربى وهم الذين راعوا حق المساواة فى تعلم اللغات لا بل أحاطوا لغتهم من العناية والالتفات محل الاصلىّ من الفرعىّ والوطنىّ من الاجنبىّ وكان السابق منهم قدوة للاحق والمجتهد المجد مثالا يحذو حذوه الغافل المتكاسل وقد عرّبت على أيديهم جملة من الكتب النافعة كما وقفت عليه فيما سبق وعلى تفاوتها فى النفع فكلها تستحق الذكر ومن أنفع ماعرّب منها فى فن التقنين الذى أصبحت الناس فى أشد الحاجة اليه على كونه فى بلادنا غريب النشأة عزيز المنال الا لمن أوتى فضلا من العلم واللغات كتاب (أصول الشرائع) وهو كتاب ضخم فى مجلدين عرّبه من الفرنساوية نابغة المعرّبين ومثال الفضل والحكمة حضرة الاصولى البارع أحمد فتحى أفندى رئيس النيابة العمومية بمحكمة الاسكندرية الاهليه وبعد أن لبس هذا الكتاب الغريب مارق وحلا من حلل التعريب رأيناه قد جمع الى المطالب العالية والمدارك السامية رصافة التعبير ولطافة التحبير ومحكم السرد وجمال الوضع على ضخامة حجمه ونفاسة موضوعه أكثر الله من أمثال هـذا الفاضل لنفع العباد وخير البلاد انه ولىّ السداد

ثم انه لاتكمل فائدة التعريب أيضا الابوضع أسماء عربية لما يجدد أو يتجدد من الآلات والعدد وسائر مايصطلح عليه علماء الصنائع والفنون فى كل زمن ومن أى جنس بحيث لايفوت اللغة شئ من دقائق تلك الصناعات وما يتعلق بالعلوم من كافة الاصطلاحات الا وهى كاشفة باسمائها عن حقائقها وأشخاصها وأوضاعها وسائر متعلقاتها اذ كثيرا ماعربت كتب من لغات أخرى وبقيت مشحونة بالفاظ أعجمية تعترض المطالع فى عرض الكلام وهى أسماء أشياء اصطلاحية بقيت على أصلها لعدم مايدل عليها فى اللغة العربية يتوقف الفهم على العلم بمعانيها فيضطر الى ترك الكتاب ونبذه ظهريا فى زوايا النسيان ويأسف على أمل فيه أضاعه ومال أنفقه وان كان من علماء الفن الذى هو موضوع هذا الكتاب

فمثل هذه الترجمة المختلطة عقيمة الفائدة الا لمن يعرفون اللغة المترجم منها وهم أنفسهم فى غنية عنها

فعندى أنه اذا لم يجد المترجم من الالفاظ المفردة مايتأدى به المراد من هذه الاسماء الاصطلاحية فالاولى أن يجعل للكتاب حاشية يتعرض فيها لشرح هذه الكلمات بكلام مركب مفيد أو يذيل الكتاب بقاموس لتفسير هذه الكلمات وبذلك يكون للترجمة فائدة فى الجملة

قال بعض الاجانب ان اللغة العربية لغة قاصرة لاتصلح لان تكون لغة العلوم العالية والفنون السامية كالعلوم الفلسفية والفنون الحكمية والصناعية فان أراد بقوله هذا أن كثيرا من أمثال هذه العلوم الحديثة لم ينقل اليها الى الآن فنحن نسلم له ذلك ولكن لايلزم منه رمي اللغة نفسها بعدم صلاحيتها لذلك وان أراد كما قيل أن أساليبها الكلامية غير كافية لكشف المعاني الفلسفية الدقيقة ونحوها وأن هناك من المعاني مالا يوجد له ألفاظ فيها قلنا هذه كتب ابن سينا والفارابي وابن رشد والطوسي وغيرهم من فلاسفة الامة العربية وحكمائها ورياضييها وما عرب من الكتب الطبية والرياضية وغيرها في العصر الحاضر مما يكذب ما ادعاه من قصور الاساليب الكلامية

وأما المعاني الجزئية والاصطلاحات الحديثة التي لايوجد مايدل عليها من اللغة فاللغة فيها من الاوضاع مايكفل ذلك وما دام الاصطلاح لايحتاج الى توقيف من الله بتسمية خاصة ولاتعليم من رسول أونبي فكل لغة صالحة لأن يستنبط منها مالايحصى من الاصطلاحات لاي فن كان وفضل اللغة العربية لاينكر من جهة اتساعها وما امتازت به من كثرة المترادفات فهذا مما يسهل علينا وضع الالفاظ الكافية منها لهذه المدلولات بحيث يراعى فيها شدة

المناسبة

المناسبة بين معانيها الاصلية وهذه المعانى المنقولة اليها ان لم نجد من الالفاظ مايدل عليها بالمطابقة وعلى ظنى أن ذلك نادر جدا فان من يتتبع اللغة العربية يجدها كافلة بالمعانى التى لاتخطر على بال ولاعبر بها وهم واذا جاز فى المجاز استعمال ألفاظ لغير ماوضعت له لأدنى علاقة اذا اقتضى المقال الكلامى فأولى من ذلك ماتدعو اليه الضرورة وشدة الحاجة وكم لعلماء الفنون العربية وغيرهم اصطلاحات لاتحصى قد شحنت بها كتبهم ومؤلفاتهم وهى عبارة عن ألفاظ استعملت فى غير معانيها وصارت حقائق عرفية فيها وما رأينا أن أحدا منهم حجر الاصطلاحات وضيق دائرتها بشرائط لايهتدى لها الا فلسفى أو متفلسف وكيف لا وان من قواعدهم المسلمة قولهم (لامشاحة فى الاصطلاح)

وقلنا ان كثرة المترادفات فى اللغة العربية مما يسهل علينا وضع مانروم وضعه من الاصطلاحات لان المترادفات الواردة لمعنى واحد مهما كثرت فقد روعى غالبا فى كل منها باصل الوضع وصف فى المدلول لم يراع فى غيره فان قيل ان اختلاف ألفاظ المترادفات فى لغة العرب لم يكن الا لاختلاف لغات قبائل العرب لا لاختلاف أوصاف المدلولات كما روى أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبى صلى الله عليه وسلم وقد وقعت السكين من يده الشريفة

فقال له ناولنى السكين فالتفت أبوهريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل كذلك ثم قال آلمدية تريد وأشار اليها فقيل له نعم فقال أوتسمى عندكم سكينا ثم قال والله لم أكن سمعتها الا يومئذ اه (قلنا) ان هذا لاينافى أن كل قبيلة من قبائل العرب كانت تلحظ فى تسمية الشئ معنى وصف لم يكن ملحوظا لمن سواها وبذلك اختلفت الاسماء كما ستقف عليه فى الكلام على وجه تسمية كل من المدية والسكين فى فصل الكتابة

ومن هذا كله تعلم أن ايجاد أو ضاع لما تجدد من المسميات والاصطلاحات فى سائر الفنون لم يكن بالمتعذر بل ولا المتعسر لما علمت أن باب الاصطلاح واسع وليس هذا ضربا من ضروب الاجتهاد الذى سدت أبوابه وتنكرت معالمه بل ليس فى ذلك كبير عناء فان العدد والآلات الخاصة بكل عمل والمواد والاصطلاحات المتعلقة بكل فن معلومة محصورة وماعلينا الا أن نضع لكل نوع منها اسما عربيا يميزه عن غيره ولا نؤخر العمل الى أن نجد فى اللغة من الاسماء ماينطبق على المسمى نصا أويكون أشد مناسبة بل يكفى فى كل اسم مجرد المناسبة وان من بعض الوجوه حتى اذا ردتنه الالسنة وكررته الذاكرة صار نصا فى تعيين المعنى يتوارثه الخلف عن السلف كما تورث اللغات جيلا بعد جيل

ولا يحتاج الأمر فيه الى عقد لجان تستلزم نفقات واسعة بل يكفى لذلك أن يكلف اثنان أو ثلاثة من المبرزين فى كل فنّ ومعهم واحد أو اثنان ممن لهم وقوف تام على اللغة العربية ويكونون جميعا من موظفى الحكومة الذين يستوفون الرواتب الكافية أو غيرهم ويكلفون بهذه الاعمال على مكافآت تعطى لهم بعد تمام العمل ثم يكون لهم حق التزام فى طبع ما يجمعونه من القواميس فى هذا الشأن ثم تجعل هذه القواميس مدار التعليم فى المدارس فاذا استوفت اللغة حظها من مثل هذه الاسباب غسل عنها العار ولم يبق وجه لمن يرميها بما هى بريئة منه وظهر فضلها وعمّ نفعها وصارت فى مقدمة اللغات صيتا واشتهارا

ومن أسباب ترقى اللغة كثرة الأندية والمجتمعات المعدة لتلاوة المقالات العلمية والخطب الادبية التى يقصد بها اتساع دائرة الافادة والاستفادة والحض على تهذيب الاخلاق والحث على فضائل الاعمال ولكن يشترط فى هذه الخطب والمقالات أن يراعى فيها الاسلوب العربى لا أن تكون على أسلوب بليغ وأن تخلو من الالفاظ العامية ولا شك أنه كلما كان موضوع المقال أهم كان تأثيره فى النفوس أعظم فينساق السامعون الى حفظه كله أو بعضه وتكريره كلما عن لهم ما يذكرهم به فتعتاد ألسنتهم النطق بالعربية

الفصيحة وهذا فضلا عن الفوائد المعنوية التى يكون لها فى نفوسهم التأثير الحسن

وأفضل الخطابات نفعا لنوال هذا الغرض ماهو من نوع الروايات التياترية سيما اذا كانت تحكى عن وقائع الحروب الهائلة أو الاحاديث العشقية أو نحو ذلك مما ينبه الافكار ويستلفت الانظار فكما أن هذه الروايات يتأدى بها أكبر خدمة للآداب العمومية فكذلك هى من أنفع الاسباب لترقى اللغة لانها فى غالب الاحوال تكون مؤلفة من عبارات جيدة الاساليب ويراعى فى القائها أحسن الطرق لتأثيرها فى المسامع بحيث يكون لقوة الحفظ منها أوفى نصيب

ومن أسباب ترقى اللغة كما أشرنا اليه سابقا أن ينتهج العلماء والادباء فى طريق التخاطب العام السبل المرعية عند النحاة ولا يجارون العوام على ماهو مألوف عندهم ويحتم على أساتذة المدارس معلمى الفنون العربية والازهريين خصوصا أن يعودوا تلامذتهم على هذا التخاطب أمامهم وفيما بينهم لتثبيت ماتعلموه وتقريره فى أذهانهم وليكون ذلك من أهم الوسائل لتعليمهم طرق الانشاء بكيفية تصير ملكة راسخة فيهم من غير تكلف كما يفعل بعض معلمى اللغات الاجنبية فكثير منهم يمنع تلامذته من التكلم

الا عماهم بصدد تعلمه من تلك اللغات حرصا منهم على هذه الفائدة العظيمة ولو لم يكن فى ذلك سوى وقوف الاستاذ على حال التلميذ ومبلغ قوته فى الحفظ والفهم والاجتهاد لكفى ولكون لاأقل على علم بما يستحقه مثلا عند الامتحان الذى هو مزالق الافهام بما يستولى على بعض النفوس من الاوهام

ولقد أبت اللغة العربية الا أن تكون كامنة فى بطون الكتب والدفاتر لايظهر منها أثر على الالسنة حتى صار تعلمها كعقيم الفائدة الا لطالبى العلوم الدينية وكاد يصدق عليها أنها لم تكن الا لغة دينية مقدّسة لكون فائدتها قاصرة على ذلك غالبا وصار التخاطب بها على الوجه المرعى يعدّ نوعا من الشدقة الخارجة عن قانون الحشمة والادب وان من الذين أفنوا أعمارهم فى درسها تعلما وتعليما وان بلغوا فيها مبلغ سيبويه والخليل حتى أصبح لسان حالها ينشد

متى وعسى يثنى الزمان عنانه * بعثرة حال والزمان عثور

ومن قبيل الاسباب النافعة لترقى اللغة نشر الكتب الفكاهية التى يقبل عليها الناس والجرائد المحررة باسلوب عربى وان لم يكن بليغا والاغانى ونحوها اذا كانت تنشد على وجوهها خالية من اللحن والتحريف والباعة فى الاسواق لواتقنوا فى مناداتهم صحيح العبارات والتزموا خطة الادب وتجنبوا فحش القول وعلهم ذوو

الآداب مايليق بكل نوع من المأكولات وغيرها من الجمل المستطابة التي ترشد الناس لما فيه صلاح حالهم لكان ذلك من أنفع الوسائل لسترقى اللغة ولقام لنا منهم خطيب واعظ مرشد لايهمل النصيحة آناء الليل وأطراف النهار

(الفصل الثاني في الكتابة)

اعلم أنه لاتتم الفائدة المقصودة من اللغة الا بالكتابة فهي والكلام قسيما اللغة كما قيل القلم أحد اللسانين فالحاجة اليها ضرورة عامة خصوصا في هذا الزمان اذ صارت لكل انسان بمنزلة عينه ويده فهو بدونها يعدّ أعمى أشلّ ولهيئة الاجتماعية الدائرة الحافظة لحركة الحياة

وهي اما صحيحة قد روعيت فيها الاصول المتبعة من جهتي الوضع والرسم فهي كاللغة الصحيحة أو غير صحيحة فهي كاللغة العامية تحرف اللفظ فيتغير المعنى ويخرج القارئ الى مايغاير المراد بسبب مايقع فيها من الخلط واللبس في أوضاع الكلمات والحروف وحينئذ يكون اطلاق اسم الخط العربي عليها كاطلاق اللغة العربية على لغة العامة وكما أن هذه لاتصلح لتدوين الكتب العلمية فكذلك هذه الخطوط التي خرجت في الوضع والرسم عن أصول الخط العربي

لاينبغي

لاينبغي أن يكتب بها ماتمس اليه الحاجة السياسية أو الدينية وكافة ماتدور عليه حركة المعاملات ونظام الاعمال

وهذه الخطوط على نقصها وخلل نظامها على أشكال وضروب شتى وتسميها العامة (الخط الديواني) وان لم يستعمل الآن في دواوين الحكومة العالية الا قليلا

نعم يوجد كثير في المصالح الصغيرة وغيرها كمحلات التجارة ودوائر الزراعة يستعملون هذه الانواع ويتغالون فيها خفاء وابهاما حتى انهم يعدّون ذلك من المهارة في الكتابة ولا يراها عامة الناس الا من قبيل المميات والرموز

ولم يكن خفاؤها ولبسها على العامة خاصة بل وعلى أهل العلم الذين تلقوا اللغة العربية قراءة وكتابة وبذلك قد انقسمت الكتابة العربية الى قسمين أيضا كتابة العامة وكتابة الخاصة

وإنا في صدد الكلام على مايجب اتخاذه من الوسائل النافعة لتوحيد اللغة وقد قلنا ان الكتابة من متممات فوائدها فليكن توحيد هذه متمما لتوحيد تلك ولما كان البيان هو المقصود بالذات من الكلام والكتابة معا فهما شريكان في أمر واحد فيجب أن نقوّم من أودهما ونصلح من فسادهما ليظهر سر الحكمة في وضعهما ولنذكر لك شيأ في فضل الخط وما يجب أن يراعى فيه من حسن الوضع استيفاء للفائدة من جميع الوجوه فنقول

قال أبو العباس أحمد بن على القلقشندى المصرى فى كتابه ضوء الصبح المسفر أما فضل الخط فأعظم شاهد لعلو قدره وأقوى دليل على رفعة شأنه أن الله تعالى نسب تعليمه الى نفسه واعتده من وافر كرمه وافضاله فقال عز اسمه اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم مع مايروى أن هذه الآية والتى قبلها مفتتح الوحى وأول التنزيل على أشرف بنى آدم وأكرم مرسل صلى الله عليه وسلم وفى ذلك من الاهتمام بشأنه ورفعة محله مالا خفاء فيه ثم زاد شرفه تأكيدا ووفر محله اجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقلم الذى هو آلة الكتابة وما يسطر به فقال تقدست عظمته (ن والقلم وما يسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون) والاقسام لاتقع منه سبحانه الا بشريف مأبدع وكريم مااخترع كالشمس والقمر والنجوم ونحوها ثم نتيجة تفضيله وأثرة تعظيمه أن النبى صلى الله عليه وسلم ندب الى مقصده الاسنى وحث على مطلبه الاغنى فقال قيدوا العلم بالكتاب مشيرا الى الغرض المطلوب منه وغايته المجتناة من ثمرته وهو تقييد العلم من حيث ان العمر قصير والوقائع كثيرة وماذا عسى يحفظه الانسان بقلبه ويحصله فى ذهنه قال ذو الرمة لعيسى بن عمر اكتب شعرى فالكتاب أحب الىّ من الحفظ ان الاعرابى لينسى الكلمة قد سهر فى طلبها ليله فيضع موضعها كلمة فى

وزنها

وزنها لانساويها والكتاب لاينسى ولا يبدّل كلاما بكلام انتهى

وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب قال فى مواد البيان وبين اللفظ والخط مناسبة ظاهرة وكما أن اللفظ فيه الجزل الفصيح الذى يستعمله مصاقع الخطباء ومفالق الشعراء والمبتذل السخيف الذى يستعمله العوام فى المكاتبة والمخاطبة فكذلك الخط المحرّر الذى يكتب به الكتب السلطانية والامور المهمة وفيه المطلق المرسل الذى يكاتب به الناس ويستعملونه فيما بينهم وكما أن اللفظ يقع فيه لحن الاعراب الذى تهجنه كذلك الخط يقع فيه لحن الهجاء وكما أن اللفظ اذا كان مقبولا حلوا رفع المعنى الخسيس وقرّبه من النفوس وان كان غثا مستكرها وضع المعنى الرفيع وابعده من القلوب كذلك الخط اذا كان جيدا حسنا بعث الانسان الى قراءة ماأودع فيه وان كان قليل الفائدة وان كان ركيكا قبيحا صرفه عن تأمل ماتضمنه ولو كان جليل الفائدة ولما اشترك اللفظ والخط فى الفوائد العامة التى جعلت فيهما وقع الاشتراك أيضا بين آلتيهما اذ آلة اللفظ اللسان وآلة الخط القلم وكل منهما يفعل فعل الآخر فى الابانة عن المعانى الا أن اللفظ لما كان دليلا طبيعيا جعلت آلته آلة طبيعية والخط لما كان دليلا صناعيا جعلت آلته آلة صناعية ولما تقاسمت الآلتان الدلالة نابت احداهما مناب الاخرى فأوقعوا اسم اللسان على القلم

فقالوا الاقلام ألسنة الافهام وشركوا بينهما فى الاسم فقالوا القلم أحد اللسانين انتهى

فتبين لك من هاتين العبارتين أن اللغة لاتكمل فوائدها الا بالكتابة وأن الكتابة لايتم المقصود منها الا اذا استوفت حظها من الكمال المعتبر عند الكتاب ولننقل لك طرفة مما يتعلق بآلات الكتابة لتكون على علم بما يجب العناية به منها حيث انها الاصول الاولية لما عداها مما له تعلق بفن الكتابة فنقول

أصل هذه الآلات (الدواة) قيل وتجمع جمع كثرة على دوىّ بضم الدال وكسرها ودوايا مثل حوايا ورجل دوّاء بفتح الدال وتشديد الواو اذا كان يبيعها ويقال لمن يحملها داو على وزن واد والدوىّ آلات تصنع من معادن وغيرها على أشكال شتى فندع اختيار مايحسن من ذلك الى ماتميل اليه رغبات الكتاب انما ينبغى أن تكون خالية من النقوش حتى لايتسارع اليها القذى والدنس ولا بأس بالحلية ان لم يترتب عليها ذلك وينبغى تجويدها وصونها قال المدائنى

جوّد دواتك واجتهد فى صونها * ان الدوىّ خزائن الكتاب

ومنها (المحبرة) بكسر الميم وفتح الباء وهى الجونة التى يستمد منها للكتابة والاليق أن تكون مستديرة حتى لايجتمع فى زواياها ان

كانت ذات زوايا كدر الحبر وتشتمل على (الليقة) مأخوذة من قولهم فلان ما يليق كفه درهما أى لا يحبسه ولا يمسكه لامساكها الحبر ومنعها اياه من السيلان ويقال منه ألقت الدواة ولقتها اذا جعلت فيها الليقة وتكون من الحرير الخشن لتنتفش فى المحبرة فلا تتلبد وتكون أعون على الكتابة وعلى الكاتب ان يتفقد الليقة ويطيبها وقد كان بعض الكتاب يطيب دواته باجود طيب نفسه حتى لا تتغير رائحتها على طول اذ يكتب بها من الاسماء ما يجب احترامه وربما سبق القلم بغير المراد فيضطر الكاتب للحس ما كتب ويتعين تجديدها فى كل شهر ويجب أن تطبق المحبرة بعد الفراغ من الكتابة تحرزا عما يسقط فيها مما يفسد الحبر

ومنها (المداد) سمى بذلك لانه يمد القلم أى يعينه وسمى حبرا بكسر الحاء لخلاص سواده يقال فلان ناصع الحبر أى اللون الخالص من كل شئ قالوا ولا بد للحبر من الملح ليمنعه من التعفن والكافور ليحسن رائحته ويمنعه من نفوذه فى الكاغد على طول الزمن وأما أعمال صناعته فلها محال تطلب منها لا تسعها هذه المقدمة

ومنها (القلم) ويسمى المزبر بكسر الميم واسكان الزاى المعجمة وفتح الباء الموحدة أخذا من قولهم زبرت الكتاب اذا أتقنت كتابته ومنه سميت الكتب زبرا قال تعالى (وانه لفى زبر الاولين) ويقال فيه

أيضا المرقم والمرقش وسمى قلما لقلم رأسه وبريها قيل لأعرابي ما القلم ففكر ساعة ثم قال لا أدرى فقيل له توهمه فقال هو عود قلم من جوانبه كتقليم الظفر فسمى قلما قال عبد الحميد الكاتب القلم شجرة ثمرتها الالفاظ ومن كلام ابن المعتز لم تخط دولة بالقلم الا اخترت على الدول واستغنت عن الخيل والخول ولله قول القائل

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم * والبيض ماسلت من الأغماد
وهبت له الآجام حين نشابها * كرم السيول وصولة الآساد

(قال) ابراهيم بن محمد الشيباني ينبغي للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقلها عقدا وأكثفها لحما وأجاها نشرا وأعدلها استواء (وقال) الوزير أبو علي بن مقلة أحسن قدود القلم أن لا يتجاوز به الشبر وأجوده ما كان ثقيل الجرم

قالوا يقال بريت القلم أبريه بريا وبراية والقلم مبرى وأنا بار للقلم بغير همز في الجميع قال الشاعر

يا باري القوس بريا ليس يحكمه * لا تفسد القوس أعط القوس باريها

وربما قيل بروت والياء أفصح ويقال لما سقط في حالة البرى براية بضم الموحدة ويقال في الامر ابر قلمك (ويحكى) أن الضحاك كان اذا أراد أن يبرى قلما توارى بحيث لا يراه أحد ويقال الخط كله القلم قال ابن مقلة ويجب أن تكون فتحة القلم أكثر تقعيرا اذا

كان صلبا وأقل ان كان رخوا وفى المعتدل بينهما وهذه الفتحة يعبرون عنها بالجلفة وهى مابين مبراة القلم الى سنه وينبغى أن تكون بمقدار عقدة الابهام قال ابن البواب وكل قلم تقصر جلفته فان الخط يجىء به أوقص والوقص قصر العنق ورأى عبد الحميد بن قتيبة يكتب بقلم قصير البراية أى الجلفة فقال أتريد أن تجود خطك فقال نعم قال أطل جلفة قلمك وأسمنها وحرّف القطة وأيمنها ففعل فجاد خطه وقال ابن مقلة يجب أن يكون نحت جانبى القلم متساويا من جهتى السن معا ولا يحمل على احدى الجهتين فيضعف سنه قال ويختلف شق القلم باختلافه فالصلب ينبغى أن يكون شقه الى آخر الفتحة والرخو الى نصفها والمعتدل الى ثلثها وليكن غلظ السنين سواء ويجوز أن يكون الايمن أغلظ من الأيسر دون العكس فى كل حال (والقط) فى اللغة القطع وهو المقصود الاعظم من البراية وعليه مدار الكتابة قال ابن عجلان من وعى كثرة أجناس القط كان مقتدرا على الخط ثم هو على نوعين فى الجملة محرّف ومستو فالمحرف هو أن يكون السنّ الايمن أطول من السنّ الايسر فى الكتابة العربية قال ابن العفيف وطريق بريه أن يحرف السكين فى حال القط قال وهو اما قائم أو مصوب فالقائم ماجعل منه ارتفاع الشحم مثل ارتفاع القشرة والمصوب

ماكانت القشرة فيه أعلى من الشحم ثم قال وقد كان من لايعتدّ به يقط القلم على ضد ذلك فيجعل الشحم هو المشرف على ظاهره فكان خطه لايجيء الا رديئا والمستوى ماتساوى سناه قال ابن مقلة وأجودهما المحرف قال ابن البغيف وأجود المحرف المعتدل التحريف قال وأفسد القطات المستوية لان المستوى أقل تصرفا من المحرف قال ابن مقلة واذا عزمت على القط فأضجع السكين قليلا ولا تنصبها نصبا يريد أن تكون القطة مائلة الى التحريف

ومنها (المدية) قال الجاحظ وتقال بضم الميم وفتحها وتجمع على مدى وسميت مدية لانها تقطع مدى الاصل بالذبح وتسمى السكين أيضا بكسر السين لانها تسكن حركة الحيوان بالذبح وهى تذكر وتؤنث هذا سكين وهذه سكين وربما قيل سكينة وهو قليل قال ابن مقلة واستحدّ السكين حدّا ولتكن ماضية جدّا فانها اذا كانت كالة جاء الخط رديئا مضطربا وما أحسن قول القائل على لسانها

أنا فى السلم خادم لدواتى * وبحدّى تقوم الاقلام

وينبغى أن لاتستعمل فى غير البراية

ومنها (المقط) بكسر الميم وقيل مقطة بالتأنيث وينبغى أن يكون أملس صلبا غير خشن لئلا يتشظى القلم وأن يتخذ من الآبنوس والعاج ونحوهما ويكون مسطح الوجه لامستديرا

ومنها (المسن) بكسر الميم وفتح السين وهى آلة تتخذ لاحداد السكين من حجارة صلبة والحجازى أفضلها وهو الاخضر

ومنها (المسحة) بكسر الميم الاولى وسكون الثانية وهى تتخذ من خرق متراكبة ونحوها يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة حتى لايجف الحبر عليه فينسد

ومنها (المواق) بكسر الميم وهى آلة مستديرة عريضة الرأس تلاق بها الدواة أى تحرك بها الليقة والاحسن أن تكون من آبنوس حتى لايغير لونها المداد

ومنها (المقلة) بكسر الميم وهى الجونة التى يكون فيها الاقلام ونحوها من آلات الدواة وربما كانت من جلد منقوش وينبغى أن لاتقصر

ومنها (المفرش) بكسر الميم ويقال المفرشة بالتأنيث وهو مايفرش فى باطن الدواة تحت الاقلام وما معها من حرير أو صوف أو غيرهما على حسب تكوين الدواة

ومنها (المرملة) بكسر الميم الاولى وفتح الثانية وهى معلومة وما أحسن ماقيل فيها

ظريفة الشكل والتمثال قد صنعت * تحكى العروس ولكن ليس تفتعل

كأنها من ذوى الالباب خاشعة * تبكى الدماء على ماسطر القلم

هذا اذا كان فيها رمل أحمر

ومنها (المنشاة) وهى الظرف الذى يجعل فيه النشا الذى يوصل به الورق ونحوه

ومنها (المقص) بكسر الميم وهو معروف ويسمى الجلم بفتح الجيم واللام هذا وقد أوصل بعضهم آلات الكتابة الى العشرين ولكن ماذكرناه هو ماتمس اليه الحاجة بحيث لايستغنى عنه كل كاتب فيما يريد أن يزاوله من أصول الاقلام أوفروعها وحيث ان قواعد الكتابة وما يتبع حسن وضع الخط من الاشكال والكيفيات قد دوّنت أحكامها ومجارى أحوالها فى كتب على حدتها فعلى الكاتب النبيل أن يقف على مايحتاجه منها حسبما تطالبه به صناعته وتقضى عليه حرفته وأن يحصل ماتميل اليه رغبته فان أصول الاقلام متباينة الاشكال وفروعها متخالفة الاوضاع

وهذه الصناعة من أجلّ الصناعات وأعلاها منزلة فعلى من يتسم بها بين الناس أن يصرف كل الجهد فى مراعاة أصولها وقواعدها سواء فى ذلك مايرجع الى حسن الوضع وما يتعلق بفنّ الرسم فان ذلك عليه أوجب من مراعاة التجمل فى ملبسه والتأنق فى مطعمه قال القلقشندى فى ضوء الصبح (اعلم) ان تحسين الخط مطلوب للكاتب لايجوز له اغفاله اذ هو من أحسن صفاته التى ترفع قدره عند الناس وتكون وسيلة الى نجح مقاصده وبلوغ ما تربه وقال

أمير المؤمنين على رضى الله عنه الخط الحسن يزيد الحق وضوحا واذا كان الخط حسن الوصف مليح الرصف مفتح العيون أملس المتون كثير الائتلاف قليل الاختلاف هشت اليه النفوس واشتهته الارواح حتى ان الانسان ليقرؤه وان كان فيه كلام دنيء واذا كان قبيحا مجته الافهام ورفضته العيون والافكار وان كان فيه من الحكمة عجائبها ومن الالفاظ غرائبها ولما كان الخط قيما للفظ فى امتنان الله تعالى بتعليمه على الانسان وجب على الكاتب أن يعتنى بامر الخط ويراعى من تجويده وتصحيحه مايراعيه من ترتيب اللفظ وتنقيحه فضل الخط البعيد منه كما أن فضائل النطق انما هى للبليغ اللسن

طرفة فى تاريخ الكتابة وذكر أول من وضع الخط العربى ومن نقله من الكوفى الى ماهو عليه فى زماننا هذا

قال فى ضوء الصبح المسفر قيل أول من وضعه ادريس عليه السلام وقيل نزل على هود عليه السلام ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من يولان ويولان قبيلة من طيء كانوا نزولا بمدينة الأنبار وهم مرار بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة اجتمعوا فوضعوا حروفا منفصلة وموصولة ثم قاسوها على هجاء السريانية فرار وضع

الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ثم نقل ذلك الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر فى الناس وتداولوه

وقيل أوّل من وضعه ستة أشخاص من طسم من العرب البائدة كانوا نزولا عند عدنان بن أدد وكانت أسماؤهم (أبجد وهوّز وحطى وكلن وسعفص وقرشت) فوضعوا الخط على أسمائهم فلما وجدوا فى الخط حروفا ليست على أسمائهم ألحقوها بها وسموها الروادف (ثخذ ضظغ) وقيل واضعه بنو اسمعيل وروى من طريق ابن عبد البر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أوّل من كتب بالعربية اسمعيل (ثم قيل) أوّل ماظهرت الكتابة العربية بمكة من قبل أبى سفيان بن أمية عم أبى سفيان بن حرب وهو تعلمها من رجل من الحيرة وأهل الحيرة تعلموها من أهل الانبار ويروى أنه قيل لابن عباس من أين تعلم الهجاء والكتاب قال من حرب بن أمية قيل ومن أين علمه ذلك الطارئ قال بالنقل من كاتب الوحى لهود عليه السلام ولما تعلمها حرب بن أمية تعلمها منه ابنه أبو سفيان ابن حرب ثم تعلمها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجماعة من قريش وتعلمه معاوية بن أبى سفيان من عمه سفيان أما أهل المدينة فكانت الكتابة العربية قليلة فيهم وكان يهودىّ من يهود ماسكة قد تعلمه وكان يعلمه الصبيان فجاء الاسلام وفيهم بضعة عشر

يكتبون منهم سعيد بن زرارة والمنذر بن عمرو وأبىّ بن وهب وزيد بن ثابت ورافع بن مالك وأسيد بن حضير ومعن بن عدىّ وأبو عبس ابن كبير وسعد بن الربيع وأوس بن خولة وبشير بن سعد

قال صاحب الابحاث الجميلة والخط العربى هو المعروف الآن بالكوفى ومنه استنبطت الاقلام (وذكر) صاحب اعانة المنشى أن أول ما نقل الخط العربى من الكوفى الى ابتداء هذه الاقلام المستعملة الآن فى أواخر دولة بنى أمية وأوائل الدولة العباسية ويقال ان جودة الخط انتهت الى رجلين من أهل الشام هما الضحاك واسحق بن حماد وكانا يخطان الجليل وكان الضحاك فى خلافة السفاح واسحق بن حماد فى خلافة المنصور والمهدى ثم أخذ اسحق بن ابراهيم السجزى عن اسحق بن حماد الجليل واخترع منه قلما أخف منه سماه قلم الثلثين وكان أخط أهل دهره به ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه قلم الثلث وأخذ يوسف أخو ابراهيم السجزى القلم الجليل عن اسحق أيضا واخترع منه قلما أرق منه وكتب به كتابة حسنة فأعجب به ذو الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون وأمره أن يحرّر الكتب السلطانية به ولا يكتب لغيره وسماه قلم الرياسى قال بعض المتأخرين وأظنه قلم التوقيعات وكان أحمد بن محمد بن حفص المعروف بابن أقف أجل الكتاب خطا فى الثلث وكان ابن الزيات يحب خطه ولا

يكتب بين يديه غيره وانتهت رياسة الخط بمصر فى زمن ابن طولون
الى طبطب المحرّر جودة واحكاما قال فى صناعة الكتاب وكان أهل
مدينة السلام يحسدون أهل مصر عليه ثم انتهت جودة الخط
وتحريره على رأس الثلثمائة الى الوزير أبى على بن مقلة وأخيه
عبد الله فانهما ولدا طريقة اخترعاها وكتب فى زمنهما جماعة فلم
يقاربوهما وتفرّد أبو عبدالله بالنسخ والوزير أبو على بالدرج وكان
الكمال فى ذلك للوزير وهو الذى هندس الحروف وأجاد تحريرها
وعنه انتشر الخط فى مشارق الارض ومغاربها وأخذ عنه محمد
ابن السمسانى ومحمد بن أسد وعنهما أخذ الاستاذ أبو الحسن على
ابن هلال المعروف بابن البوّاب وهو الذى أكمل قواعد الخط وتممها
واخترع عدّة أقلام استقرّت أصولها على خمسة وهى الثلث والرقاع
والتوقيعات والنسخ والمحقق وعنها تفرّعت سائر الاقلام من الغبار
والشعر والمنثور والحواشى وغيرها وممن أخذ عن ابن البوّاب
محمد بن عبد الملك وعن محمد بن عبد الملك أخذت الشيخة المحدّثة
الكاتبة زينب الملقبة بشهدة بنت الابرى وعنها أخذ أمين الدين
ياقوت وعنه أخذ الولى العجمى وعليه كتب العفيف وعنه أخذ الشيخ
شمس الدين بن أبى رقيبة محتسب الفسطاط وهو ممن عاصرناه وعنه
أخذ الشيخ شمس الدين الرفتاوى المكتب بالفسطاط وعنه تلقينا
الكلام فى هذا الفن انتهى باختصار

ومن أخذ عن الشيخ شمس الدين بن أبي رقيبة الشيخ شهاب الدين غازي وعنه أخذ شمس الدين محمد الوسمي وعنه أخذ الشيخ عبد الرحمن ابن الصائغ وعنه أخذ خير الدين المرعشي وعنه أخذ شيخ مسنده الطريقة محمد الله المعروف بابن الشيخ وهو الذي أجاد في تحسين الكتابة وعنه أخذ ابنه مصطفى دده وعنه أخذ ابنه الدرويش محمد وعنه أخذ پير محمد وعنه أخذ حسن أفندي الاسكداري وعنه أخذ خالد أفندي وعنه أخذ الدرويش علي وعنه أخذ حسين أفندي الجزائري وعنه أخذ السيد محمد أفندي الثوري وعنه أخذ اسماعيل أفندي وهبي وعنه أخذ عثمان أفندي الشهير بالبقلجي وعنه أخذ ابراهيم أفندي مؤنس وعنه أخذ ولده الخطاط الشهير بمصر الآن محمد المعروف بمؤنس كذا في كتاب الميزان المألوف له

(الفصل الثالث في الكلام على اللغة العامية)
(من حيث ما يتعلق بها من الفنون العربية)

انما تكلمنا على العامية من هذه الحيثية لتنكشف حالتها ازاء اللغة الفصيحة ويعلم مقدار ما بينهما من الاشتراك والافتراق

اعلم أولا أن المعاني سواء كانت وجودية أو عدمية ذهنية أو خارجية لا تختلف باختلاف اللغات سواء كان دالها لفظا أو كتابة أو اشارة أو غير ذلك والدال من حيث كونه دالا سواء كان لفظا أو نقشا

تابع فى الوجود لمدلوله ويختلف باختلاف اللغات بخلاف المدلول فهو واحد فى نفسه وليس وجوده تابعا لوجود داله فالمعانى سواء كانت لمفردات الالفاظ أو للجمل لاتختلف منزلتها فى الافهام وغالبها معهود العقول فالحقيقة اذا أدركها زيد فهى هى اذا أدركها عمرو سواء كان يدل عليها بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام والمعنى اذا أصابه الكلام أو لم يصبه فهو ثابت فى نفسه وذلك كما اذا كان المطلوب بالكلام الدلالة على معنى يقتضيه الحال كالتأكيد للمنكر مثلا وجاء الكلام على غير المطلوب فالمعنى الواجب مراعاته لم يزل متصفا بهذه الصفة فى نفسه ولم تنقلب حقيقته ولم تتغير صفته بمجرد الخطا أو الغلط الكلامى والالزم من اطلاق لفظ فرس على زيد غلطا أو خطأ انقلابه من الانسانية الى الفرسية وهو باطل ويدل على هذا كله قولهم (حقائق الاشياء ثابتة) وحينئذ فليست المعانى نفسها موضوع اللغات والا لما اختلفت هذا خلف فثبت أن موضوعها انما هى الالفاظ ليس الا وأن المعانى سواء كانت مفردة أو مركبة تشترك فيها اللغات بدلالة الالفاظ عليها فكما أن مفردات الالفاظ فى كل اللغات تشترك فى الدلالة على المعانى المفردة فكذلك الجمل المركبة فى كل لغة تشترك فى المعانى المركبة وقد قلنا ان المعانى غالبها معهود للعقول البشرية خصوصا المفهومات العامة كالنفى والاثبات

والانكار والتأكيد والايجاز وما يقابله والتشبيه والكناية الى غير ذلك مما لايستغنى عنه ناطق ويقتضيه مقام التكلم فى وقت دون وقت ويستلزمه البيان فى حال دون حال ويظهر ذلك كثيرا للناظر فى اللغات اذ كثيرا مايرى عبارتين من لغتين قد اتفقتا فى المعنى أو اشتركتا فى وجه من الوجوه المذكورة ويظهر ذلك بوجه أجلى فى الترجمة من لغة الى أخرى مع المحافظة على معنى الاصل المترجم فهذا كله دليل على أن اغراض البلاغة تشترك فيها سائر اللغات لا فرق بين لغة وأخرى الا فى كيفية طرق الدلالات مما يتبع الاحوال اللفظية فان تشبيه الشئ بما يفوقه فى الحسن أو القبح مثلا وبالعكس والتكنية عما يستبشع ذكره والتأكيد للمنكر والاطناب فى وصف الامر المحبوب والايجاز فى مقام يقتضيه واستعمال كلمة فى غير معناها الاصلى لقصد المبالغة فى مقام المدح أو الذم كل ذلك مسوق اليه الانسان بفطرته الاولية فاغراض البلاغة من لوازم اللغات لاتزايلها والمتمدنون والمتوحشون فيها سواء والاختلاف فى أمور عرضية لافى ذات المقاصد الاصلية التى هى مرجع الاحساسات الانسانية فى كل مكان وزمان

فامتياز اللغات انما هو فيما يرجع أمره الى الالفاظ وأحوالها ولذلك فهى تمتاز بمميزات من هذا الوجه تختلف اختلافا بينا الا أنها

ثبتت على أوضاع وأصول تقررت ومضى عليها العمل بين الأمم بحيث صار يعدّ مايخالفها فى أمر ما خارجا عن قانون كل لغة أجنبيا عن طبيعة الاستعمال المألوف سواء كان فيما يختص بأبنية الالفاظ المفردة أوما يتعلق بأساليب الكلام أونحو ذلك مما يرجع الى موضوعات اللغات وكلامنا فيما استقرّ عليه الامر من القواعد والاصول المحافظين لقوام كل لغة لافيما تقتضيه ظروف الاحوال من تهذيب اللغات وتقدمها بتقدّم الأمم فى سبل الحضارة والتمدن بحسب ما يناسب أحوال كل أمة فان ماهو من هذا القبيل لايستلزم تغييرا فى اللغة بادخال ماليس منها فيها بل هو بعينه من باب انتخاب الاحسن من الطرق الكلامية على وفق هذه الاحوال طبقا للقواعد والاصول ترويجا للافادة والاستفادة المقصودتين من اللغة ولاشك أن الاستعمالات اللغوية وخصوصا الاساليب الكلامية تستتبع ملكات تشبه الملكات الصناعية فتحتمل من الطرق العملية مالا يدخل تحت حصر من التحسين والتهذيب لولا أن قدرة الانسان تقف به عند حدّ معلوم

أما اذا خرجت اللغة عن أصولها الاولية وداخلها من التغيير والتبديل مالاينطبق على أوضاعها المرعية لأمور حدثت فبلبلت اللسان وحوّلت سننه عن مجراه الطبيعى فمثل هذا مالوحل باللغة

لصارت به لغة أخرى غيرها بالنظر لما كانت عليه وآلت اليه ولو بقي الاشتراك بين الاولى والثانية في جل المواد اللفظية وكثير من الاساليب الكلامية وذلك لان اللغة لاتعد أنها هي الا بكونها حائزة لجميع مميزاتها لم ينقص من أحوالها المعتبرة شئ فاقد ما من شئ من تلك الاحوال الا وله من الفوائد اللغوية مايقتضيه فهو لم يكن عبثا ولم يوضع جزافا

واعتبر ماذكرناه بحال اللغة العامية تراه منطبقا عليها كل الانطباق فلا يسعك حينئذ أن تطلق عليها اسم اللغة العربية الا بضرب من التجوز لعلاقة الشبه من بعض الوجوه ولكن هذا لايأتيك بفائدة مادمت تنظر كلا منهما بنظر يغاير نظر الاخرى فتمثل بما قيل

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحي غير نسائهم

ومنه تعلم فساد مازعمه ابن خلدون كما ستقف عليه في محله ان شاء الله تعالى

وحينئذ فلم يبق لنا من سبيل للتكلم على العامية من الفنون العربية الا من جهة ماتقتضيه فطرة العوام مما يأتي لهم عفوا منطبقا على كثير من أحكام البلاغة وغيرها ومنه تعلم أن هذه اللغة لها نصيب في الجملة من هذه الفنون العربية

فالعوام يختلفون فى طرق الابانة ويخون بعض مقاصد البلغاء بالفطرة وان لم يعرفوا وجوهها المعتبرة فيها على وجه التفصيل فانهم بالضرورة لايميزون بين معانى الحروف ولا بين الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وغاية الأمر أنهم اذا أرادوا المبالغة فى أمر هدتهم فطرتهم الى استعمال شئ من ذلك فيقولون مثلا فى المجاز بالاستعارة التبعية (فلان موت فلان من الضرب) اذا ضربه ضربا أليما فهم أنفسهم يفرقون بين معنى الموت والضرب الاليم فاستعمالهم فى هذا المقام لفظ الموت بدل الضرب الاليم الذى يعنونه من الكلام دليل على أنهم عدلوا عن الحقيقة الى المجاز عن قصد لارادة المبالغة استنهاضا للسامع الى الانتقام مثلا وما يظهر من علامات الاستغراب والتعجب على أسارير وجوههم وما تعرفه من أحوال كلامهم عند استعمال المجاز الذى هو محل المبالغة ربما يقوم قرينة مانعة عن ارادة الحقيقة ويسهل عليك معرفة الفرق بين مايستعملونه حقيقة وما يستعملونه مجازا وقس على ذلك التشبيه والكناية وما يلحق بهما وكثيرا ماينهم من كلامهم أن الحقيقة تسمى عندهم (جدّ) والمجاز (تهويل) أو (تجسيم) أو (هزار) أونحو ذلك والتشابيه كثيرة فى كلامهم ولهم فيها مسالك شتى وأكثرها من باب التشبيه البليغ وخصوصا فى أنواع المبيعات من المأكولات

والمشروبات

والمشروبات وغيرها وكثيرا مايستعملون الاطناب فى الشتائم والمدائح والايجاز فى مثل السؤال عن حال الاهل والاقارب والاصحاب ولو تتبعنا كلامهم لطال الشرح وأدى الى الاسهاب وعلى الحاذق اللبيب أن يقيس على ماذكرناه ويكفينا كافة التفصيل فان استيفاء هذا الباب مما يفوت معه غرض هذه المقدمة المبنية على الايجاز وبالجملة فجهلهم بحقائق هذه الاصطلاحات لايقدح فى فطرتهم وسرعة بديهتهم فقد علمت أن كل أمة تنحو فى لغتها وان كانت العاميه مقاصد البلغاء والفصحاء وان اختلفت العبارة وتباينت المقالة بين من نسميه عاميا ومن نسميه عالما أوفصيحا ومن تتبع كلام العوام يراه مشتملا على نكت غريبة وملح ظريفة ومحسنات بديعة ربما لا يوجد مثلها فى الكلام البليغ فان المعانى التى يدركها البليغ قد يدركها العامى وبالعكس وكل منهما يلبسها عبارة على قاعدة لغته والفرق الواقع بين اللغات لايؤثر فى المدارك شيأ كما أن العلم بالفنون العربية بالنظر الى الفطرة البشرية قد يتساوى مع الجهل بها فقد كانت العرب لاعلم لها بهذه الفنون وكانت لغتهم محفوظة فى الصدور لافى السطور ومع ذلك فكان لايشق لهم غبار فى مضمار البيان فأين منهم المولدون وان بلغ الواحد منهم مبلغا عظيما من العلم بفنون اللغة فقد يتكلف شطرا من بيت فلا

يأتى به الابعد جهد جهيد وربما يكون مع ذلك بعيدا عن غرض الاستحسان وكان العربى الجلف يأتى بالقصيدة ارتجالا فتأتى كلها سمطا واحدا كل بيت منها يقف الزمخشرى فى ساحته لايبدى خطابا ولايحير جوابا

فقل لى هداك الله اذا كانت العرب لاتعرف شيأ من علوم الحقيقة والمجاز فمن أين لها هذه الاذواق السليمة وطرف اللطائف التى لاتصدر الا عن طباع كريمة فلا يسعك حينئذ الا أن تحكم للفطرة البشرية بأنها واحدة الحقيقة فى أفراد الانسان على اختلافها وهذه الفطرة كما كانت للعرب هى لغيرهم من عوام الناس وخاصتهم والاحساسات الانسانية والعواطف البشرية لاتفاوت فيها من أصل الفطرة والمدارك مهما تشعبت واختلفت فرجعها كلها الى هذه الاحساسات وتلك العواطف وما تراه فيها من الاختلاف انما هو تخالف طفيف لامور عرضية لاتبدل من أصل الفطرة شيأ فبان لك من هذا كله أن العامى قد يرمى بكلامه عن قوس البديهة الى أغراض البليغ فيصيبها ونعد ذلك من توافق الخواطر والافكار ونعنى بقولنا عن قوس البديهة انه يأتى بالكلام من غير تكلف فى اختيار العبارات التى يفصح بها عن ضميره بل يأتى به كما كان العربى القح يأتى به فيصيب ما فى خاطره مستوعبا لجميع مقاصده لانه

مامن شئ يعين على أداء المعنى المراد نصا صريحا لالبس فيه ولا غناء سوى البديهة الفطرية السليمة وما من أمر يبلبل الخاطر ويعوق سابق الفكرة ويرمى الالمعية بالعىّ الا التقيد بالوقوف عند حدّ الاستحسان باختيار المعانى الغريبة والعبارات الفصيحة والنكت المستملحة كما يقع ذلك لكثير من الشعراء والخطباء فلا يرد عليهم هذا التكلف شيأ مما يريدون ولو لم يقيدوا خواطرهم بهذه القيود الثقيلة لجرت قرائحهم فى ميادين البيان واتواردت عليهم المعانى المخترعة والعبارات البديهة عفوا بلا كد لاذهانهم وكدح لافهامهم وكم من سليم الفطرة سلس الطبع سريع البادرة التزم هذه الطريقة العقيمة وكلف طبعه بما فوق الطاقة جريا مع خياله العاطل ووهمه الباطل فصار كمن كلما لمح برقا ظن فيه ودقا أومن اذا نظر على بعد سرابا حسبه ماء فيذهب كل ناحية لدرك أمانيه وهو لايدرك مع الجهد الا إعياء وشدة وعناء فيعود خاسئا خاسرا

وأكثر ما يكون ذلك من تأثير قوة الوهم فى نفس الكاتب فيخيل له ان كل مايكتبه يأتى مجردا عن الاحسان بعيدا عن حد الاجادة فلا يروق فى عينه شئ منه وان كان حسنا فى نفسه فلا يزال يستبدل جملة بأخرى ويتردد من معنى الى غيره حتى يلحقه الملل

ويعييه الكلال فيرمى بالقلم والقرطاس ويدركه اليأس والقنوط من العودة الى الموضوع وربما عنت له سانحة بعد ذلك إثر هذا الاعياء فيراها غاية فى الاحسان وتحل عنده محل الاعجاب فيقيدها وان كانت فى الواقع أقل بكثير مما كان يأتيه فى بادئ الامر عفوا ثم اذا ازداد به هذا الوهم صار وسواسا ملازما وخبالا فى العقل دائما وهذا كله ناشئ عن التزام التكلف وسلوك التعسف فى اختيار أبدع ما يكون من العبارات

فما أربح صفقة ممن يجرى مع بديهته ويسلم قياده لفطرته فلا يتكلف فى الخطاب الا بقدر مايدرك المعنى ويميز خطأه من صوابه ثم يفرغه فى قالب الالفاظ حسبما يتيسر له وهذه حالة كثير من العوام فمنهم من هو أسرع جوابا وأبين حجة وخطابا من بعض من لهم كبير احاطة بالفنون العربية

ولعلك فى كتاب التحفة تطلع على جمل من أمثالهم وشواهد من خطاباتهم الشائعة على ألسنتهم سواء كان مما يتملق بالمناداة على الاطعمة والمبيعات عند السوقة ومن نعدّهم من أخلاط الرعاع أو مما هو من قبيل أغانيهم لتعليل الاطفال أوفى الافراح أو من قبيل النعى فى المآتم كما تفعل النائحات الى غير ذلك مما هو متداول على ألسنتهم من مخترعاتهم التى انفردوا بها لتعلم كيف أنهم يقتدرون

بفطرتهم

بفطرتهم على لطائف العبارات مع بساطة تراكيبها وقرب معانيها وسهولة مأخذها وسذاجة قائليها وما عليك الآن تردّ كل نوع الى ما ينطبق عليه من فنون البلاغة

أما علاقة العامية بفن النحو فضعيفة جدا ان لم نقل انها منقطعة بالكلية لان النحو انما يبحث عن الالفاظ من حيث اعرابها وتركيبها وحركات الاعراب من خصوصيات اللغة الفصيحة فلاحظ للعامية منها وذلك لان جميع الالفاظ فيها ملازمة للسكون كألفاظ اللغات الافرنجية والذي يظن أن الحامل على اهمال الحركات انما هو استسهال التكلم بدونها فان اللسان اذا لزم في أواخر الكلمات حالة السكون سهل عليه التلفظ بها وكان اسراعه به بمقدار بطئه بنطق الحركات ومنشأ ذلك تغير حال اللغة بمباشرة الاعاجم كما ستقف عليه في كلام ابن خلدون

فنقصت اللغة باهمال الحركات مايتم به أمر الدلالة وقد قال ابن خلدون كما ستقف عليه انه قام مقام الحركات بعد اهمالها أمور أخرى كالتقديم والتأخير وقرائن الاحوال وأنت خبير بان القرائن لاتحصر ولاتضبط فان لم يكن هناك مايدل على المراد من الأمور اللفظية فالالبس في المعاني غير مأمون وهذا التقديم والتأخير غير ملتزم بخصوصه في كل كلام ولا عند كل متكلم بالفطرة الاولية اذ

الفطرة العربية قد تغيرت ولم تتجدد فطرة أخرى يكون من مقتضاها هذا الالتزام وقد قررنا أن التغيير والتبديل فى اللغة العامية لا يقفان عند حد فى زمن ما مادام سببهما وهو الاختلاط حاصلا فان المسبب لا ينقطع مادام السبب موجودا الا أن يكون هذا التقديم والتأخير مصطلحا عليه ولا يخفى أن الاصطلاح فى ذلك لا يعلم الا عند طائفة من الناس وهم الذين وجد بينهم هذا الاصطلاح على أن مجرد العلم بهذا الاصطلاح وان كان عاما لا يفيد الغرض الا اذا كانت مراعاته ملتزمة من جهة الفطرة كما التزمت الحركات فى لسان مضر بالفطرة لا بمجرد الاصطلاح عليها بين من كانوا يتكلمون بها ولو كان مجرد العلم بأى اصطلاح يترتب عليه أن يجرى العمل على مقتضاه لكان كلام المولدين العالمين بالفنون العربية يعتبر ككلام العرب أنفسهم فى مقام الاستدلال والاستشهاد ولما نهجوا فى التخاطب العام منهج العوام ولما وقع خطأ فى الاجتهاد عند من يعرفون طرقه وأحكامه وبالجملة لكان العلم مستلزما للعمل على الوجه الاكمل

فان قلت فاذا كانت الحركات مستثقلة فى اللفظ لما يلزم عليها من زيادة التعمل والتكلف فى النطق فهلا كانت اللغة العربية عارية عن هذه الحركات بحسب الاصل وكانت وجوه الدلالة تتعين بالالفاظ

أو بأساليب التراكيب كما فى اللغات الاخرى وكان هذا يقوم دليلا على فضل اللغة العربية على غيرها من اللغات فان سهولة النطق باللغة مما يميزها على سواها

قلت ان القول بأن هذه الحركات تستلزم تكلفا فى النطق انما يسلم عند غير العرب أو الذين استجهت طباعهم أو مالت بهم الى غير الفطرة العربية أما العرب فلا يقال انهم كانوا يتكلفون النطق بالحركات مادام ذلك من مقتضيات فطرتهم وقد كان الواحد منهم يحاول به الغير الخروج عن مقتضى فطرته من النطق بما لايجوز فى اللغة فكان يتعذر عليه ذلك

على أن الحركات قد يدل بها على أحوال أخرى مما يقتضيه المقام غير تعيين الفاعل من المفعول مثلا وهذا مما يحسب من فضائل اللغة التى منها امتياز أساليبها بالاختصار مع جمع المعانى بسبب دلالة هذه الحركات على مالا يدل عليه فى غيرها الا بالالفاظ ومنها أن أساليبها صالحة لاداء المعانى بطرق مختلفة الدلالة فى الوضوح بحيث ان كل تركيب يمكن أن يستعاض عنه بآخر يكشف عن المعنى بوجه أجلى أو أخفى بحسب الحاجة فضلا عما يتضمنه من النكات الادبية والمحاسن اللفظية ومنها كثرة مترادفاتها بحيث يؤدى فيها المعنى الواحد بألفاظ شتى حتى ان كثيرا من المعانى له فى العربية

مئات وآلاف من الاسماء ومنها قلة المشترك اللفظي بخلاف كثير من اللغات الاخرى فقلما تجد فيها لفظا غير مشترك بين جملة من المعاني وقد يكون له مئات من المعاني بحسب دخوله فى التراكيب المختلفة ومثل ذلك يحسب من عوز اللغات وفقرها

وأما أحوال التراكيب فى العامية فانها تشبه فى كثير من الصور الكلامية أحوال التراكيب فى اللغة الفصيحة وليس الشبه فى ذلك قاصرا على اللغة العربية فان كل اللغات يشبه بعضها بعضا فى غالب التراكيب كشبهها فى البلاغات ويظهر هذا كثيرا فى ترجمة بعض عبارات من بعض اللغات الى بعضها مع المحافظة على أسلوب المترجم اذ كثيرا ما يمكن ذلك مع عدم اختلال المعنى أو فساد التركيب وحينئذ فلا امتياز للغة العامية من هذا القبيل على أنا نرى فيها كثيرا من التراكيب الفاسدة بالقياس الى القواعد النحوية

وأما حظها من فن الصرف فليس بأوفر منه بالقياس الى النحو اذ كثيرا ما نرى فيها كلمات جاءت فى كلامهم على غير أصول الصرف مما يختص بالادغام والفك والجمع والاشتقاق والتصغير ونحوها وتراهم يكسرون حروف المضارعة أو يفتحونها أو يضمونها حيث لا يجوز شئ من ذلك وقد كثر فى كلامهم ادخال الباء على المضارع باطراد اذا أرادوا به الحال فيقولون بياكل بيشرب اذا كان يأكل أو يشرب

فى الحال وكثيرا مانسمع فى كلامهم مصادر وأسماء فاعلين أومفعولين ماسمع منهم لها أفعال وبالعكس وان كان منها ماله فى أصل اللغة مشتقات لايعرفونها الى غيرذلك مما يطول شرحه ويعد حصره

فقل لمن يريد أن يضع لهذه اللغة أصولا تضبطها وتكفل طرق التصريف فيها انه اذا أمكن ذلك ولا أراه ممكنا لأصبحت على حال غير ماهى عليه فلا تكون هى ذات اللغة العامية المستعملة الآن بل تكون لغة جديدة تحتاج الى تعليم وتمرين وصرف مال جزيل ودهر طويل وعناء شديد وهيهات أن يجمع شتيتها فى أصول واحدة فانها تختلف باختلاف الاقطار بل تتعدد بتعدد البلدان

ثم لنتكلم الآن على اللغة العامية من حيث مايتعلق بها من فن العروض ونتكلم أولا على الشعر بوجه عام فنقول

ان الشعر ملكة نفسانية بها يقتدر الانسان على نسج الكلام بطرق مخصوصة للتعبير عن مقصده وذلك أنه عند مايحس بأثر أمر ملائم أومنافر تنبسط به نفسه أوتنقبض ينساق بطبعه الى اظهار شعائر هذا الاثر لما تستدعيه خفة الطرب أو شدة الالم فيتحرك لسانه عفوا بكلام يشير به الى حاله ويصرح بما فى نفسه بحيث يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيرا على السمع ليستلفت الناس اليه فيقبلوا عليه ويكون لهم معه نوع ما من الاشتراك فى هذا الاثر ولا

شك أن هذا الاشتراك يكون أولا بالاحساس الباطنى ثم يتبع ذلك مايظهر على الاعضاء الجسمانية من الحركات الموجهة الى جلب الملائم أودفع المنافر وهذا الغرض هو المدفوع لنواله هذا الشاعر بطبعه فهو اما أن يطلب المعونة على تحصيل المحبوب أو الخلاص من المكروه وهذه كلمة شعر تؤذن بالشعور فهذا الاسم قد لوحظ فيه ماهو الغاية منه

ومن البديهى أن الكلام الذى يعرب به عن المراد فى هذه الحالة يكون بكيفية خاصة من جهة لفظه أعنى كيفية صوته فيختلف باختلاف الاحوال اذ يكون له فى الفرح كيفية ليست له فى ضده وهذا الاختلاف لازم لملكة الشعر لزوما طبيعيا ولايخفى أن كيفيات الصوت وما يتعلق بها يرجع البحث فيها الى فن الموسيقى وحينئذ فالشعر له تعلق طبيعى تام به لان الموازين الشعرية ماختلفت الا باختلاف كيفية الاصوات

ثم ان الملكات الانسانية موجودة بالقوة فى النفوس البشرية وتظهر آثارها بالفعل عند مايهيئ لها الانسان بالعمل نظامات وضعية مخصوصة وكل ملكة تحتمل من الاعمال مالايدخل تحت الحصر فملكة الموسيقى كملكة الشعر كلتاهما من الغرائز النفسانية ولا يظهر منهما عند العمل الا ما يدخل تحت نطاق القدرة البشرية

المحدودة

المحدودة فسبب وقوف الاعمال عند حدود ليس فى الحقيقة هو قصور الملكات بل ضيق الامكان المختص بالقوى الانسانية

واذا علمت أن الانسان مفطور على الملكات الشعرية فالشعر يوجد فى كل اللغات وليس حصر أوزانه فى عدد مخصوص لقصور فى الملكات بل لضيق دائرة القدرة البشرية فهذه مقامات الموسيقى تعد بالاصابع غير أن الاصوات بحسب مايتفرع عنها قد لاتدخل تحت العد وذلك بحسب ازدواجها وامتزاج بعضها ببعض على أنحاء شتى وماقيل فى مقامات الموسيقى يقال فى أوزان الشعر لرجوع هذه الى تلك ولوكان حصر الاوزان فى عدد خاص طبيعيا لما اختلفت باختلاف اللغات ولما وقع فى عدها خلاف فقد ذهب الخليل الى أنها خمسة عشر وزنا وذهب الاخفش مرة الى أنها أربعة عشر بحذف المضارع والمقتضب حيث ادعى أنهما لم يسمعا من كلام العرب ومرة قال انها ستة عشر حيث زاد على ماقاله الخليل بحر المتدارك وهذا الاختلاف يرجع الى استقراء كلام العرب والاستقراء من الظنيات لا اليقينيات ولا شك أن الخليل والاخفش لم يستقرئا من تاريخ العرب الغابر الا الوقائع المعلومة ولم يتلقفا من كلامهم الا ماوصل اليهما منه وتداولته الالسنة ووعته الناس لشهرته وندرته غالبا وربما لم يزل فى الزوايا خبايا لواطلعا عليها

لزادت الاوزان على ماقرراه وأثبتاه وهذا لاتأباه بديهة العقل سيما وقد عرفت أن الملكات النفسانية لاتقف عند حدّ ولا تنحصر أعمالها فى عدّ ولهذا قد زاد المولدون على أوزان الشعر الفنون السبعة التى لم تنطق بها العرب على رأى الجمهور وهى السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والزجل وكان وكان والموالياً فهذه الفنون قد ولدتها الملكة الشعرية التى ولدت الاوزان المعلومة عند ماراج سوق الشعر وورى زناد ملكته وتنافست فيه العلماء والادباء فى الدول الاسلامية المتوسطة ولا يقدح فى عد هذه الاوزان من الشعر اصطلاح العلماء على أن الشعر هو ما كان على وزن من الاوزان المعلومة نعم انه شعر لم تنطق به العرب كما قالوا ولكن سلب اسم الشعر عنه مطلقا لايسلم لما علمت انه مولد عن ملكة شعرية لاعن ملكة النجارة والحدادة مثلا

و بناء على ماقصلناه يمكنك أن تعد من قبيل الشعر أناشيد العوام على اختلافها بل ورطانة السودانيين على ايقاعات حركاتهم عند الرقص المعروف بعصر برقص العبيد فانها ألفاظ ذات أصوات منتظمة على ألحان موسيقية واذا توسعنا فى النظر نرى من قبيل الشعر على قاعدتنا غناء البلابل وسجع الحمام وصياح الديكة ونقيق الضفادع وصرير بنات وردان وطنين الذباب ونحو ذلك فان جميع

الحيوانات تحس كما تحس بالملائم فتقبل عليه وبالمنافر فتعرض عنه فاذا ألمّ بها أمر وأحست له من أنفسها انقباضا أو انبساطا ربما تهتف بهذه الاصوات على كيفيات مخصوصة كما بيناه فى حال الانسان فاذا كنا نعدّ بعض رطانة المتوحشين وأصوات الحيوانات العجم من قبيل الشعر على قاعدتنا فأولى من ذلك مايردده العوام فى مغانيهم وهراثيهم فان ذلك يرجع غالبه الى الفنون السبعة المذكورة والقليل منه ينطبق على أوزان الشعر المشهورة ولعلك بهذا البيان تعلم نصيب اللغة العامية من فنون الشعر

والمنشؤن منهم لامثال هذه الاناشيد لايقصدون وزنا خاصا لامن الاوزان المشهورة ولا من الفنون السبعة بل ينطقون بها على مقتضى الفطرة فحالهم فى ذلك يشبه أن يكون كحال العرب فانهم ما كانوا يعرفون هذه الاوزان لحفظ العامة من الشعر فطرى لاصناعى ووزنهم اتفاقى فخرج بذلك عن الشعر المصطلح عليه عند العروضيين فان تعريفه عندهم (الكلام الموزون قصدا بوزن عربى) وكم للعامة جمل من قبيل النثر ومنشآت من النظم على قواعدهم ولهم فى المحاضرات أفانين كثيرة يأتون بها فى محادثاتهم من قبيل الاستشهاد على الوقائع والقصص فان كان هنالك فن من الفنون العربية لهم فيه الحظ الاكبر فليس الا فن المحاضرات أما اللغة فليس

لهم من العلم بها الا ألفاظهم المحرفة بألسنتهم التى هى معاول التحريف أما القوافى وقرض الشعر فلا أزيد فيهما على ماشرحته فى العروض وكذلك تفنن من يعرف الخط منهم فيه لاينقص عن تفننهم فى الالفاظ

فهذه جملة القول فى لغة العامة من حيث نسبتها الى الفنون العربية ومنها تعرف حالتها بالقياس الى اللغة الفصيحة وبالاجمال فاللغة العامية ليس لها من علوم الادب الا مايأتى به توافق الخواطر الفطرى بعيدا عن الصناعة الادبية المخصوصة والعامة أنفسهم من حيث الفطرة كبقية أصناف النوع الانسانى يمتازون بأحوالهم الخاصة بهم كامتياز لغتهم بخلوها عن النظامات والروابط بحيث أصبحت عديمة الفوائد العلمية بخلاف لغات المتوحشين الذين يهيمون فى الجبال والاودية

نبذة فى الرد على ابن خلدون فى زعمه أن لغة العرب فى عهده تساوى لغة مضر الا فى حركات الاعراب

واذا علمت أن اللغة العامية هى كل لغة تخالف لغة العرب الفصيحة سواء كان فى عهدنا أو فى عهد ابن خلدون وأنها تنقص بكثير عن حال الفصيحة لا فى الاعراب الذى يظهر حكمه فى أواخر الكلم فقط بل فى كل وجه من وجوه الكمال المعتد به فى طرق الابانة ورأيته

ساق فصلا فى مقدمة تاريخه المشهورة ذكر فيه ما ذكر مما لو اطلع عليه مطلع لرآه نصا صريحا فى أن اللغة العلمية التى كانت فى زمنه انما تنقص عن لغة مضر حركات الاعراب فقط وان كان عنوان هذا الفصل يعطى خلاف ذلك وأنت قد علمت حال اللغتين مما شرحناه فى الفصل السالف فرأيت أن أستدرك على ما أطال به فى هذا الفصل بعد نص عبارته قال

فصـــــل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك انا نجدها فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة فى المضرى أكثر وأعرف لان الالفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى مايدل عليه وكل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال فى تأدية المقصود لانها صفاته وتلك الاحوال فى جميع الالسن أكثر مايدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع وأما فى اللسان العربى فانما يدل عليها بأحوال وكيفيات فى تراكيب الالفاظ وتاليفها من تقديم أو

تأثير أو حذف أو حركة اعراب وقديدل عليها بالحروف غير المستقلة
ولذلك تفاوتت طبقات الكلام فى اللسان العربى بحسب تفاوت
الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربى لذلك
أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله
عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصرلى الكلام اختصارا واعتبر
ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة انى أجد
فى كلام العرب تكرارا فى قولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا
لقائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول لافادة خالى
الذهن من قيام زيد والثانى لمن سمعه فأنكره والثالث لمن عرف
بالاصرار على انكاره واختلفت الدلالة باختلاف الاحوال

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد
ولاتلتفتن فى ذلك الى خرفشة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة
مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت
وان اللسان العربى فسد اعتبارا بما وقع أواخر الكلام من فساد
الاعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها التشيع فى
طباعهم وألقاها القصور فى أفئدتهم والا فنحن نجد اليوم الكثير
من ألفاظ العرب ولم تزل موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد
والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود فى كلامهم لهذا العهد

واساليب

وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم
وفهم الخطيب المصقع فى محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على
أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم
يفتقد من أحوال اللسان المدوّن الا حركات الاعراب فى أواخر الكلم
فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومنهجا معروفا وهو
الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان
مضر لما فسد لمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق
والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت
أولا فانقلب لغة اخرى وكان القرآن منزلا به والحديث النبوى
منقولا بلغته وهما أصلا الدين والملة فخشى تناسيهما وانغلاق
الافهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به فاحتيج الى تدوين
أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول
وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية
فاصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة
رسوله وافيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد
واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بامور
أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون فى
أواخره على غير المنهاج الاول فى لغة مضر فليست اللغات وملكاتها
جبانا انتهى

هذا فصل مهم من كلامه نقلناه شهادة عليه بما قلناه وكفانا منه ان شهد للغة العرب الفصيحة التى هى لغة مضر بالفضل على كافة اللغات ثم قال فى خاتمة هذه المقالة فليست اللغات وملكاتها عجمانا فعلمنا أنه ما من لغة الا ولها ملكات راسخات فى طباع من هى لغة لهم تختلف بحسبها أحوال التفاهم والابانة وهذا ما أوجب التفاضل بين الكتاب والخطباء فى كل أمة فكانه يقول ان اللغات جميعها فى حكم واحد وان كان هناك تفاضل بينها

غير أن هذه المقالة وان تضمنت ما كفانا الاستشهاد به على بعض المطالب لكنها بجملتها تشبه الحرباء تلونا فانه سلك فيها مسلكا اضطربت فيه أقواله كل الاضطراب وانى لست أحيل على أمر ليس فى أيدينا منه شئ فها هى هذه المقالة بل هذا الفصل برمته من أوله الى آخره بمرأى ومسمع من القارئ والسامع فانه رحمه الله على فضله وغزارة نبله وضع من شأن اللسان العربى الفصيح الذى هو لغة مضر اذ جعل لغة العرب التى كانت متداولة فى زمنه وعلى عهده مساوية لهذا اللسان العظيم الشأن وان أفهم عنوان الفصل غير هذا اذ قال فى مطلع مقاله انا نجدها (أى لغة العرب فى عهده) على سنن اللسان المضرى فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة وقصارى الفرق بينهما انما هو وجود الحركات وعدم وجودها بل لا فرق بينهما من

هذه الجهة أيضا على قوله فان مافقد من هذه اللغة قام مقامه جملة أحوال كالتقديم والتأخير وقرائن أخرى تدل على خصوصيات المقاصد والوفاء بالغرض الذى يتأدى باللسان المضرى ثم أعقب ذلك بالاطناب فى حال هذا اللسان من جهة ما امتاز به من كثرة البيان والبلاغة وأفاض فى هذا الاطناب حتى أيقنا أنه هو وحده الذى يصح أن يطلق عليه اسم اللغة العربية حيث قال ان مايدل عليه باحوال التراكيب وكيفياتها التى تعتبر فى الدلالة على المقصود والتى منها حركات الاعراب لايوجد الافيه وان هذا هو مدار التفاضل بين لغة العرب وبين اللغات الاخرى نعم وان كان ذكر للغة العرب التى كانت على عهده أحوالا بها تكون الدلالة على خصوصيات المقاصد الا أن هذه الاحوال غير تلك كما يدل عليه صريح كلامه فانه ذكر أن أحوال لغة العرب فى عهده ليس منها حركات الاعراب وأنها من أحوال لغة مضر وان النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤت بجوامع الكلام الا بالاحوال التى للغة مضر لاسواها والتى لولاها لما امتاز الكلام العربى بكونه أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الالسن وبعد هذا الاطناب بهذا البيان السوى رجع عن هذه الوجهة الشريفة الى ماكان عليه أولا مما يفهم منه أن اللغتين على حد سواء اذ قال

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد فليت شعري أيّ بلاغـة وأيّ بيان يريدهما باسم الاشارة والذي يتعين ارجاعه لما ذكره من بلاغة وبيان اللسان المضري فان كان غرضه غير ذلك كان الأولى له أن لايذكر اسم الاشارة للقريب حتى لايعكر علينا صفو القول ويجعلنا نظن به الظنون التي لانظن بمثله

ثم زاد الطين بلة بقوله ولا تلتفتن في ذلك الى ترفشة النحاة الخ حيث رمى في هذا القول النحاة بالتشيع للاهواء الفاسدة ترويجا لصناعتهم وتحسينا لبضاعتهم ووصفهم بما لايليق من القصور في المدارك مما يسوّد وجه تاريخهم ويفضي الى الاعتقاد بأنهم ماوضعوا فنّ النحو ودوّنوه الا طلبا للحطام لاخدمة لحفظ سنن القرآن والحديث كما صرح به بعد ذلك بهنيهة

ثم زاد الطنبور نغمة بقوله (والا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب ولم تزل موضوعاتها الاولى) مع انا لانكر عليه هذا القول ولكن لايقوم له دليلا على أن قوله الكثير يفيد أن اللغة ضاع من ألفاظها شيء وان أوهم أنه قليل وكفى بذلك برهانا على انقلاب حالها سيما اذا كان هذا الضائع استبدل بألفاظ أعجمية ثم عطف على ذلك قوله (والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الابانة

موجود

موجود فى كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع فى محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك) هذا كله جمجمة بلا طحن ودعوى يكذبها العيان اذ ليس كل تعبير عن مقصد أو تفاوت فى إبانة يعد من البلاغة السامية التى تكفل بها اللسان المضرى ثم ماهى أساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر الموجودة فى مخاطبات هؤلاء العرب الذين تبلبلت ألسنتهم بمخالطات الاجنبيين من سوريين ومصريين ومغاربة كما صرح به نفسه بعيد ذلك بقوله (وانما وقعت العناية باسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم الخ) اذلا يبقى بعد هذا الفساد نثر ولا نظم ولا خطابة من خطيب مصقع ولا شعر لشاعر مفلق ولا فهم لهذا كله الا ممن تعلموا قوانين هذا اللسان المضرى اللهم الا أن يريد بالنظم والنثر ونحوهما مما لم يزل مستعملا بين العرب ماهو من قبيل مايتلى على القهاوى ونحوها ممن يسمون فى هذا العصر (محدثين) فان كان يزعم أن هؤلاء هم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون فهو اصطلاح جديد له لانعارضه فيه

وما أحسن مارآه صوابا بقوله (ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد الى قوله فليست اللغات وملكاتها مجانا) اذ يريد بهذا

القول أن يجارى علماء الفنون العربية الذين دوّنوا أحكام اللسان المضرى وقوانينه حفظا لكتاب الله وسنة رسوله واللغة نفسها حيث هى جامعة الامة العربية ومظهر فخرها وكنوز آدابها فيضع أيضا لهذه اللغة المحرفة على عهده أحكاما تربطها وقوانين تضبطها حتى لايضع الحساد من قدرها ولا يسرى اليها الفساد فتصبح الامة غير الامة والدين غير الدين . . . . .

هذا رأى قد صوّ به فى هذا الزمان بعض الاجانب الذين لايعرفون من اللغة العربية الا العامية فتمنى لو كانت هذه اللغة مؤسسة على أصول وقواعد كاللغة الفصيحة حتى يستعاض بتلك عن هذه فى جميع المخاطبات والمراسلات بل والمؤلفات وقد أشبعنا القول فى الكلام على اللغة العامية وأبنا نقصها وعدم صلاحيتها لتدوين الكتب والاسفار العلمية فنستغنى بذلك عن تزييف رأيه ورأى الشيخ بكلام خاص فان الرأيين قد تماثلا نظرا بل اتحدا موضوعا وياليت أن الشيخ أبان عن هذا الرأى بوجه جلىّ حتى كان يمكن لمن يجاريه فيه ممن ذكرناه أن يسلك سبيله ويتبع محجته الواضحة وخطته البينة ولكنه ألمع عنه الماعا أخفى من الخفاء وغاية ماقال (لواعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بامور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين

تخصها ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الاول فى لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا) ومعناه أن هذا اللسان العربي الذى هو موضوع كلامه انما ينقص عن المضرى حركات الاعراب فقط التى لها فيه دلالات مخصوصة فيمكن أن يعتاض عن هذه الحركات بامور أخرى لم يعينها الا بقوله موجودة فيه فيوضع لهذه الامور قوانين تخصها وترجى أن تكون فى الاواخر وأن تكون على غير المنهاج الاول فى لغة مضر أعنى لتعرف بمخالفتها لحركات الاعراب ثم انا اذا جاريناه فى هذا الكلام الذى ما أبان شيأ عن معناه فلسنا نسلم أن مدار دلالات اللسان المضرى على الحركات لا غير كما يعترف هو بذلك بل هناك دلالات أخرى لها طرق خاصة فعلمنا أن رأيه قاصر فقط على وضع أمور بها يستعاض عن الحركات ليس الا يعنى وبذلك تستوفى هذه اللغة حظها من الكمال بحيث تضارع اللسان المضرى وفاته أن يرشدنا أيضا عما يمكن الاستعاضة به عن كل نوع من الانواع التى لها فى البلاغات وغيرها شأن عظيم ولعله انما خص حركات الاعراب بالذكر لاهميتها ولأن تكون نموذجا يعرف به وجه الصفقة والا فهو نفسه صرح جليا فى الفصل الذى قبل الفصل المنقولة منه هذه المقالة السابقة المعنون بفصل فى أن اللغة ملكة صناعية بقوله (ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر) أى

ملكة التكلم بلغتهم) بمخالطتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربى) انتهى

فهذه العبارة تدل بصريحها على أن أساليب لغة مضر قد فسدت بالاختلاط ولم يكن الفساد قاصرا على حركات الاعراب لان الفطرة الاصلية متى تغيرت وصار الناشئ لا يثبت على حال واحدة فلا بد أن يكون هذا الفساد قد شمل كافة أحوال اللسان المضرى كما يؤخذ من قوله أول الفصل الا أن البيان والبلاغة فى المضرى أكثر فهذه الاكثرية تدل بمفهومها على أن قلة البيان فى لغة العرب على عهده لم يكن لها من سبب الا هذا الفساد وقوله فاستحدث ملكة يفيد أن الملكة الاولى لم يبق لها من أثر وأن ملكة التكلم بين العرب صارت مغايرة بالكلية للملكة القديمة ولا يخفى أن ملكة التكلم تشمله بجميع وجوهه وليست قاصرة على حركات الاعراب فقط كما يدلك عليه سياق هذا الفصل من أوله وقد قلنا فى أول المقدمة ان هذا الاختلاط قضى على المختلطين

بالاشتراك فى الانساب لما تجدد بينهم من جهة المصاهرة والقرابة وهذا بعينه يؤدى الى تغيير بعض الاخلاق والعادات الا مالا تأذن به الشريعة المطهرة ومن البديهى أن هذا التغيير كما يسرى الى الاخلاق لابد أن يسرى بطبعه الى سائر أحوال التكلم وهب أنه جارى فى وضع قوانين لهذه اللغة علماء الفنون العربية فلا تتم فائدتها حتى يتحتم تعميم تعليمها لكافة أفراد الامة لافرق بين ذكر وأنثى وصغير وكبير كيلا تحدث تغييرات أخرى بسبب دوام الاختلاط فان دوام السبب يستلزم دوام المسبب وتعميم التعليم بهذه الكيفية متعسر الحصول ان لم يكن متعذرا على أن الاولى بالتعليم هو أصول اللغة الفصيحة لغة القرآن والحديث

فان لم يقل بتحتم تعميم التعليم كان وضع هذه الاصول عقيم الفائدة اذ يصبح بتوالى التغييرات فى خبر كان وعلى كل حال فأى أهمية لتجشم هذا الرأى وابرازه من القوة الى الفعل بعد ماعلمنا أن الذى حمل علماء الامة على وضع الفنون العربية انما هو حفظ القرآن وكتب السنة من أن يأتى عليها شوط من التحريف والتغيير أو ابهام مافيها بانداس اللغة المضرية ولكن ماهى الفائدة التى يرجوها من وضع مايريد وضعه للغة العرب فى عهده أيريد كما يريد بعض الأجانب المار ذكره أنه بهذه الواسطة تقوم هذه اللغة مقام اللغة

الفصيحة حتى فى تدوين الكتب العلمية ويصبح جميع ما ألف باللغة الفصيحة فى حيز النسيان طعمة للسوس ويكون فى ضمنه مقدمته هذه التى بلغ صيتها المشارق والمغارب وتناقلتها اللغات الافرنجية فى الازمان الاخيرة حيث رأى فيها علماء الافرنج انها خلاصة أفكار حكمية وزبدة أنظار فلسفية أوانه كان يبادر الى نقلها للغته الجديدة لتلبس بذلك ثوبا قشيبا وتظهر بمظهر جديد يكون داعيا لاقبال العامة والخاصة عليها ولئن كانت هذه أمنيته أفكانت قاصرة على هذه المقدمة خاصة أوشاملة لبقية الكتاب بل ولجملة الكتب الاسلامية على اختلاف فنونها فان كان كذلك فقد كفانا شر ضياع هذه المؤلفات التى هى نتيجة عمل الامة الاسلامية من أول نشأتها الى زمنه والتى لو فقدت لفقدت الامة دينها وآدابها ولغتها ولئن كان يرى أن لابأس بنقل هذه الكتب الى اللغة الجديدة فهل كان يرى ذلك أيضا فى نقل القرآن العزيز أى ترجمته اليها مع كافة الاحاديث النبوية أوكان يتحاشى عن ذلك ويبقى فهم كتاب الله والسنة من طريقتهما المعهود فان كان كذلك فهلا وسعه أيضا أن يترك كافة المؤلفات على ماهى عليه ويكتفى بفهمها من طرقها المعلومة وعوض أن يراحم علماء العربية باوضاعه الجديدة للغته هذه القاصرة يسعه ماوسعهم من الانتهاج على طريقتهم ويصرف عنايته التى

كان

كان يريد صرفها خدمة للغة العرب على عهده فى خدمة اللسان المضرى

ان هذه الردود المبنية على تلك الفروض لم تكن فى حسبان ابن خلدون ولم يقصد شيأ منها فى هذه العبارات المنقولة عنه وحاشاه من ذلك ثم حاشاه ولكنى ماقصدت بذلك الا استيفاء كافة الوجوه المحتملة فى ذاتها للرد على كل من يريد أن يستغنى باللغة العامية عن الفصيحة ويضع لها أصولا وقوانين تضارع مالهذه من الأصول والقوانين والله على ماأقول وكيل

(الفصل الرابع)

فى اختلاف العلماء فى اللغات هل هى توقيفية أو اصطلاحية

لما كان الغالب على طباع كثير من الناس عدم استماع النداء الى مافيه منافعهم الا من طريق ماجاءت به الشريعة الغراء وان كان الأمر المندوب اليه جلىّ الفائدة كثير العائدة وكانت شريعتنا الغراء ماتركت من شئ الا ولها فيه نصوص صريحة وأقوال واضحة وكانت افادة التنبيه على فساد اللغة العامية وإثمار الحث على الاهتمام بتعلم اللغة الصحيحة يستدعيان من بعض الوجوه الكلام على اللغات من حيث كونها توقيفية أو اصطلاحية حدانى ذلك الى نقل أقوال العلماء فى هذا الموضوع وترجيح ماهو أحق بالترجيح منها كما ستقف عليه

قال الجمهور ان اللغات توقيفية علمها الله عباده بالوحى الى بعض أنبيائه أو بخلق العلم الضرورى بها فى بعض عباده والظاهر أن تعليمها بالوحى لانه المعتاد فى تعليم الله تعالى وعزا القول بالتوقيف الى الاشعرى بحققو كلامه كالقاضى الباقلانى وامام الحرمين واستدلوا لهذا بقوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها أى الالفاظ كلها فلا خصوصية للاسماء وقال أكثر المعتزلة هى أى اللغات اصطلاحية أى وضعها البشر واحد فاكثر وحصل عرفانها لغيره منه بالاشارة والقرينة كالطفل اذ يعرف لغة أبويه بهما واستدل لهذا القول بقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه أى بلغتهم فهى سابقة على البعثة ولو كانت توقيفية والتعليم بالوحى كما هو الظاهر لتأخرت عنها اه من شرح جمع الجوامع ببعض تصريف وهو ظاهر لايحتاج الى شرح

قالوا ان فائدة الخلاف تظهر فى جواز تغيير اللغة وعدم جوازه كأن تقلب الالفاظ عن موضوعاتها فتسمى الثوب فرسا أو بالعكس فهذا لايجوز على القول بانها توقيفية من عند الله لان فى القلب مخالفة لما أنزل الله ويجوز على القول بانها اصطلاحية فان تغيير الاصطلاح لامنع فيه وقد منعه السيوطى اذ قال ان اصطلاح اثنين الآن على تسمية الثوب فرسا أو بالعكس لايجوز قطعا أعنى

ولو على القول بان اللغات اصطلاحية وذلك منه نظرا الى أنه يؤدى الى اختلال نظام اللغة وهو مضر بالشرائع المدونة وعندى ان السيوطى قد أصاب الغرض وقال العلامة البنانى أما ما يتعلق بالاحكام الشرعية التى مستندها الالفاظ فلا خلاف فى تحريم قلبه لما يلزم عليه من تخليط الاحكام اه فقوله التى مستندها الالفاظ صفة كاشفة للاحكام ولايخفى أن الاحكام مستندة الى اللغة وتغيير شيء منها يؤدى الى تغيير ألفاظ الاحكام ان لم يكن تحقيقا فظنا اذلا نعنى بالاحكام الا ما ورد به الكتاب والسنة والأخبار المأثورة وما استنبطه الأئمة المجتهدون وما رجحه العلماء الراسخون ويتبع ذلك ماعلقوه من الشروح والحواشى فيدخل فى ذلك كافة التفاسير وشروح الحديث بجملة أنواعها وكتب الفقه على اختلافها وما قيده العلماء من ألفاظ اللغة وما دونوه من سائر الفنون العربية خدمة للكتاب والسنة فان هذه الفنون ما وضعت الا تتميما لبيان أحكام الكتاب والسنة على الوجه الاكمل كما أن التفاسير وشروح الحديث والآثار وكتب الفقه ونحوها ما روعى فيها الا هذا القصد النبيل فكلها تابعة للاحكام وتابع الشيء يعطى حكمه ولا شك أن هذه المذكورات ماتركت من ألفاظ اللغة شيأ الا وأتت عليه فالتغيير فى اللغة والتحريف فى شيء منها يؤدى الى التغيير والتحريف

فيها ان لم يكن تحقيقا فظنا وأنت تعلم ان سد باب الذرائع مما يجب مراعاته درأ للفساد من جميع مظانه ومحتملاته فاذا علمت ذلك تعلم حال اللغة العامية ومقامها من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف مما يطول شرحه ولا يأتى القلم على حصره

فان قلت اذا كان قلب ألفاظ اللغة ممنوعا فلم جازت المجازات والكنايات وليست الا ألفاظا أوجلا استعملت فى غير ما وضعت له من المعانى قلنا ان هذه من أوضاع اللغة التى لم يقل أحد بامتناعها لانها مبنية على أغراض صحيحة ولا يترتب عليها تغيير فى جوهر اللغة فان لفظ أسد مثلا اذا استعمل فى الرجل الشجاع مجازا كان لغرض المبالغة فى مدحه بالشجاعة اذا اقتضى الحال ذلك مع ان اللفظ ماسلخ عن معناه الاصلى بالكلية فى المجاز بل لم يزل معناه محفوظا يستعمل فيه فى وقت ما وفرق بين هذا الغرض الصحيح وبين من يقصد باللغة تحريفها عن مواضعها الاصلية بحيث لاتعود تستعمل فيها لغرض سيئ يؤدى الى اختلال الافهام وتشويشها فى سبيل ماألفه الناس من لفهم فان قيل ان مستعملى اللغة العامية بريؤن من مثل هذه المقاصد السقيمة والاغراض الفاسدة لانهم ورثوها هكذا عن آبائهم قلنا ان الحكم يدور مع علته وجودا وعدما وعلة المنع فى تغيير اللغة انما هو ما ينجم عنه

من

من تغيير نظام الاحكام الشرعية والآداب الملية وهذا كما يترتب على التغيير والتبديل عن غرض فاسد يترتب على مطلق التغيير وان لم يوجد هذا الغرض

لنعد الى سياق الكلام على الخلاف قالوا ودليل من يقول ان اللغات اصطلاحية قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) وتقرير وجه الدلالة أن رسول نكرة فى سياق النفى فيصدق بأول رسول فيكون ارساله بلسان قومه أى لغتهم فتكون لغتهم سابقة على ارساله فلا تكون اللغات توقيفية اذ التعليم لايكون الا بالوحى كما جرت به عادة الله فلو كانت توقيفية لتأخرت عن البعثة وقد فرض أنها سابقة عليها فيلزم الدور وهو محال اه

قلنا ان التخصيص بغير آدم عليه السلام قام عليه دليلان

(أولهما) عقلى ومستنده الواقع فان آدم عليه السلام لم يبعث لقوم كانوا قبله بلغتهم فقولهم ان رسول المذكور فى الآية يصدق بأول رسول أعنى آدم عليه السلام يخالفه الواقع ونفس الامر وهم أنفسهم يعترفون بأن آدم عليه السلام هو أبو البشر ليس قبله شئ من العائلات البشرية ولغته علمه الله اياها وهى التى علمها أبناءه ﷺ قال السيوطى فى كتاب المزهر وقال الزركشى فى البحر حكى الاستاذ أبو منصور قولا أن التوقيف وقع فى الابتداء على لغة واحدة (يعنى هى

التى علمها الله آدم) وما سواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد الطوفان من الله تعالى فى أولاد نوح حين تفرقوا فى أقطار الارض قال وقد روى عن ابن عباس أول من تكلم بالعربية المحضة اسمعيل وأراد بها عربية قريش التى نزل القرآن بها وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل اسمعيل عليه السلام وقال فى شرح الاسماء قال الجمهور الاعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين انها كلها توقيف من الله تعالى اه

(وثانيهما) سمعى وهو قوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها» وحكمة ذلك التعليم ظاهرة واضحة اذ لولم يعلمه تعالى أسماء الاشياء لما تأتى له عليه السلام ان يؤدى رسالته المبعوث بها والذى يظهر أن تعليمه الاسماء كان بالوحى ويجوز أن يكون أودع تعالى فيه عليه السلام علما ضروريا بالاسماء ومدلولاتها أما رسالته فهى بالوحى قطعا

وقد ذكر مثبتو كون اللغات توقيفية أدلة منها قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» والمراد بالالسنة اللغات فانها محل الاستغراب والتعجب فكما أن خلق السموات والارض أمر عجيب فوق قوة البشر بكثير ولا يقدر عليه الا الله تعالى فكذا اختلاف الالوان والالسنة مقدور لله تعالى لالسواه فهو تعالى خلق الالسنة المختلفة كما خلق الالوان والارض والسموات

فليس شئ من ذلك مقدورا للبشر هذا وجه الاستدلال بالآية الكريمة

(ومنها) لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج فى التخاطب بوضعها الى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة ويعود اليه الكلام ويلزم اما الدور أو التسلسل فى الاوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاء الى التوقيف اه

وهذا دليل قوى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولنشرحه بما يزيده وضوحا فنقول

ان واضع اللغة يحتاج فى وضعه الى ثلاثة أمور لا بد منها أولها أن يتخيل المعانى وثانيها أن يستحضر الالفاظ التى تجعل بازاء هذه المعانى أسماء لها وثالثها افهام المخاطبين بان هذه الالفاظ موضوعة لتلك المعانى كلا على حدته فأما استحضار الالفاظ وتخيل المعانى فلئن أمكنا لشخص الواضع الآن افهام المخاطبين بمراده متعذر الا اذا كان هنالك اصطلاح آخر من لغة أو كتابة باحداهما يتيسر له افهام المخاطبين بمراده فلو قلنا انه كان هنالك اصطلاح آخر مما ذكرناه قلنا أن ننقل الكلام الى هذا الاصطلاح فان كان لغة أو كتابة فهى اما ان تكون بتوقيف من الله تعالى أو باصطلاح فان كانت بتوقيف من الله تعالى فقد ثبت المطلوب وان كانت باصطلاح قلنا

ان هـذا الاصطلاح يحتاج فى وضـعه أيضا الى خطاب والخطاب محتاج الى توقيف أو اصطلاح فان انتهى الامر الى التوقيف ثبت المطلوب والا لزم التسلسل فى الاصطلاحات الى غير النهاية لان كل اصطلاح يستلزم أن يكون قبله اصطلاح آخر والتسلسل محال لانه يؤدى الى وجود أشياء مترتبة بالقبلية والبعدية لانهاية لها فان انتهينا الى اصـطلاح ليس العلة فيه اصطلاحا آخر يكون قبله لزم عليه اما كونه معلولا لنفسـه أو كون اللغة التى يراد وضعها هى العلة فيه لانه لايوجد معلول بدون علة وقد قلنا انه هو العلة فيها وهذا هو الدور والدور محال لما يلزم عليه من كون الشئ سابقا ومسبوقا أو علة ومعلولا فى آن واحد وحينئذ فكل شئ يؤدى الى الدور أو التسلسل يكون محالا لان الواسطة الى المحال محال والذى أدى الى استلزام واحد منهما هنا انما هو القول بوجود اصطلاح لوضع اللغة فهو محال فثبت أن اللغة مسبوقة بالتوقيف ليس إلا هذا تقرير الدليل الذى أثبتناه هنا وهو دليل متين

قال الخصم ان هـذا الدليل منقوض فان الاصطلاح لايستدعى تقـدم اصطلاح آخر بدليـل تعليم الوالدين الطفل دون سابقـة اصطلاح سمعه اه

قلنا ان هذا قياس مع الفارق فان والدى الطفل لهما لغة موجودة

فلهما

فلهما اصطلاح فى خطابه وتعليمه شيأ فشيأ الى أن يشب ويترعرع بخلاف الواضع فليس له لغة خاصة يعلمها الناس شيأ فشيأ ولئن سلمنا القياس فلا بد أن يكون الواضع بالنسبة لمن يضع لهم لغة كنسبة أبى الطفل اليه من جهة أبوته أو حكومته أو أى امتياز كان عنهم حتى يكون تعليمه آخذا على الدوام نهجا مستمرا وان كان كذلك فلم لا يجوز أن نقول ان من توفرت فيه صفة من هذه الصفات سواء كان واحدا أو أكثر هو معلم من عند الله ومأمور بتعليم من هم تحت رعايته أو من له عليهم ولاية ما أو صفة امتياز ما والا لو كان من آحادهم بلا أمر يميزه عنهم فلا يأخذ تعليمه نهجا مستقرا حيث تختلف عليه الآراء وتتباين الاهواء بين الجميع شأن الذين يرون أنفسهم متساوين فى الدرجة والمنزلة هذا أمر يقضى به الوجدان ويشهد عليه العيان فهذا النقض من الخصم منقوض عليه ولنا أن نقرر هذا المطلب بنهج آخر فنقول

ان الواضع سواء كان واحدا أو أكثر لابد عند الوضع أن يكون أمامه من الناس من يقدر على افهامهم الالفاظ ومدلولاتها ليحفظوا كل لفظ إزاء مايدل عليه نقول ان هذا ممكن فى الالفاظ التى يضعها الواضع إزاء الاشياء المحسوسة كما اذا رأى فرسا مثلا وأشار للحاضرين عنده بأن هذا الحيوان يسمى فرسا اذ يكون حينئذ الاسم والمسمى

حاضرين عند المخاطبين مدركين لهم الاوّل بحاسة السمع والثانى بحاسة البصر أما المعانى التى لاتدرك بحاسة من الحواس ولا تكشف عن حقيقتها الاشارة بأى وجه كان والحال أنها لم يكن لها اسم من قبل تعرف به عند المخاطبين فكيف يتأتى له حينئذ أن يرسم صورها فى مخيلاتهم رسما يخصصها بحقائقها ليجعل بازائها أسماء تميزها باجناسها وأنواعها واصنافها انى لا أعد ذلك ممكنا البتة لكثرة المعانى وتعذر تصويرها بمجرد الاشارة والرموز اللهم الا أن يكون ذلك الواضع من أمهر المخترعين الذين يقدرون أن يخترعوا من الوهم آلة (فونوغرافية) لتصوير الاوهام وتجسيم المعانى للناظرين

فمن هذا نرى أن الوضع البشرى لايكون كافيا وحده لايجاد اللغات من القوة الى الفعل الا بتأييد من الله وارشاد منه بطريق الوحى والالهام ولاتستبعد أن الذى علم الطير الطيران فى الهواء والسباحة فى الماء خلقة وطبعا لاتطبع فيه هو الذى أنطق الانسان وعلمه البيان على اختلاف اصنافه وتباين لغاته ومن هذا كله تعلم فساد ماذكره القائلون باصطلاحية اللغات وهو مانقل عن ابن جنى عنهم قال وذلك أنهم ذهبوا الى أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة قالوا وذلك بأن يجتمع حكيمان أوثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن

الاشياء

الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذكر عرف بهمسماه ليمتاز عن غيره وليغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض فى ابانة حاله بل قد يحتاج فى كثير من الاحوال الى ذكر مالا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفانى وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والتعذر مجراه فكأنهم جاؤا الى واحد من بنى آدم فاوموا اليه وقالوا انسان فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق وان أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا الى ذلك فقالوا يد عين رأس قدم أو نحو ذلك فتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها وهلم جرا فيما سوى ذلك من الاسماء والافعال والحروف ثم لك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها أى من اللغات اه

فهذا صريح فى أن طريق مواضعتهم كانت أولا باحضار الاشياء المحسوسة وتسميتها بالفاظ تدل عليها حتى لايحتاج فى الابانة عنها بعد هذه التسمية لاحضارها ثانية أمام الناظرين وان هنالك أشياء لايمكن احضارها وهى المعانى التى لاتحس والاشياء الفانية الى غير ذلك فأقول كيف تأتى لهم حينئذ أن يضعوا لها أسماء وهى غير مدركة ولامنظورة لهم جميعا وان أمكن أن يتصورها كل واحد

منهم على انفراده وان الاشارة وحدها غير كافيه فى تميزها

هذا على تسليم هذا الفرض الذى افترضوه من أن وضع اللغة كان بواسطة اجتماع حكيمين أوثلاثة بهذه الكيفية زمن بدء الخليقة أو بعيدها بقليل فكأنهم فرضوا أيضا أن العالم الذى كانوا فيه قد أحس بحاجاته الضرورية فشرع كل منهم فى عمل يعود على الهيئة الاجتماعية بالمنافع وكان من نصيب هذين الحكيمين الفاضلين أو الثلاثة الفضلاء أن يشتغلا بوضع اللغة خاصة ولكن فاتهم أن يقولوا أيضا بأنهما كانا يرجعان فى مشروعهما هذا الجليل الى أعمال مرتبة ونظامات محكمة ووقت مخصوص وكان يرافقهما ثالث من جنسهما يقيد عليهما مايدوّنون بقضيب فوق كثيب من رمل ولما أتما وضع اللغة أقام لهما أهل المدينة أو المملكة التى هما فيها مهرجانا عظيما كان فيه من المصارعين عدد لايحصى ثم التزما بعد ذلك اعمال اللغة وقصرا منافعها على أنفسهما حتى صار لاتذكر كلمة من اللغة الا ولهما عليها رسم مخصوص الى غير ذلك من المنافع والامتيازات التى كانت تعطى بحكم الطبيعة وقوانينها لامثال هؤلاء الحكماء فى هذه الازمان الغابرة التى ماعلق بثياب قدماء المؤرخين شئ من غبار اخبارها وما عثرنا بنبأ من آثارها الى الآن . . . .

فاذا كانت امثال هذه الخيالات الفاسدة مبلغ ماتصوره القائلون

باصطلاحية اللغات فمثلهم ازاء تصور الحقائق مثل العوام العاكفين في قهاوى الحشيش ازاء سياسة اوروبا

فان كان لابد من فرض كيفية لمواضعة اللغة فاللازم عليهم أن لا يفرضوها بما لا يقبله عقل بل اللازم على مذهبهم في بيان كيفية حصول هذه المواضعة التي يدّعونها على فرض صحتها آن يقال ان الانسان الاول لما نشأ على ظهر البسيطة مع قرين من نوعه يقاسمه المعيشة ويكون عونا له على قضاء ما رب به من هذه الحياة ويقوم به أمر التناسل مست الحاجة الى واسطة بها يكون التفاهم بينهما على وجه يعلم به كل منهما مراد الآخر وما أكنه ضميره وتوجهت اليه حاجته ليتم الغرض المقصود من هذا القرين والا فلا تظهر لهذا الاشتراك فائدة بل لا تقوم له قائمة وكانا في بادئ الامر يسمعان دوى الريح وهزيم الرعد وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس الى غير ذلك من الاصوات التي كانت توقظهما من النوم مثلا ان كانا نائمين وتستلفتهما الى التذكر ان كانا ساهين فعلما من ذلك أن الاصوات أحسن الوسائل التي بها يستلفت أحدهما الآخر لما يرومه منه فكانا يتبادلان الاصوات لهذه الاغراض ثم تدرجا من ذلك الى أن جعلاها كعلامات للحاجات المختلفة والامور المتباينة ونوعاها الى صور وكيفيات شتى بتنوع المرادات واختلاف

المقاصد وكانت هذه الاصوات فى مبدا الامر ساذجة تحاكى الاصوات المار ذكرها ولا شك أن حالة الاجتماع بينهما كانت بسيطة وقتئذ لاتحتاج الى مزاولة أعمال كثيرة ومكابدة أشغال شاقة وتداول أمور متنوعة كما يحتاجه أدنى فرد من أفراد البشر الآن فكانت مراداتهما المعاشية منحصرة فى أمور طفيفة لاتستلزم الا أعمالا قليلة فكانا لايحتاجان الى كثرة التفنن فى هذه الاصوات المفهمة ولا زيادة التعمل فيها فوق الحاجة وما حاجة من كانت الارض وطاءه والسماء غطاءه والكهوف والاغوار مأواه وورق الاشجار لباسه وأعشاب البرية غذاءه ومع كرور الايام ومر الازمان تنوعت حاجاتهما فتبع ذلك تنوع هذه الاصوات فى المخارج والكيفيات وصار المألوف منها اسما لما قصداه عند الاستعمال حتى نشا بينهما من مجموع هذه الاصوات مايسمى (لغة) ولا شك أن هذه اللغة كانت فى مبدئها قاصرة على الالفاظ الدالة على الاشياء التى يكثر تداولها بينهما من منظورات ومسموعات وملموسات ثم توسعوا فيها الى ماهو أكثر من ذلك فعظم شأنها وورثها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ومازال فى كل عصر يضاف اليها موضوعات لم تكن من قبل الى ان صارت الى ماهى عليه الآن هذا هو اللازم على مذهبهم فى بيان كيفية حصول

هذه المواضعة فان كان هذا المثال الذى شرحناه هم أنفسهم يعترفون به أيضا ولا إخالهم الا كذلك حيث هو اللازم فرضه على جعل اللغات اصطلاحية نشأت من عدم الى وجود ومن قلة الى كثرة وارتقت من نقص الى كمال كما يزعم الماديون فى الكونيات النباتية والحيوانية وذلك بحكم التدريج الطبيعى قلنا لهم انه لا ينبغى لنا الآن أن نبادهكم بتزييف ماتذهبون اليه وتعتلونه فى نفوسكم من جهة اللغات وأطوار نشأتها الا اذا وقفنا على مذهبكم فى تكوّن الكائنات فان كنتم ماديين تقولون بالنشء الطبيعى وأنّ تنازع البقاء والانتخاب الطبيعيين نفذ سلطانهما حتى على اللغات بحكم التبعية للانسان وان حال ترقى اللغات من القلة الى الكثرة ومن النقص الى الكمال بتلك العوامل الطبيعية بواسطة هذه التبعية قلنا أولا ان مذهبنا واعتقادنا غير ماتذهبون وتعتقدون ولسنا الآن فى مقام الرد على مذهبكم ولكنا لانسلم لكم أن اللغات فى النشء مثلها مثل غيرها من الكائنات الاخرى والاظهر أثر لذلك فى اللغة العربية مثلا فقد مضى عليها آلاف من السنين وهى بحالها مازيد عليها وضع ولا ارتقت أساليبها الكلامية من نقص بين الى كمال أبين وان تفاوت الفصحاء فيها نقصا وكمالا فان ذلك لايخلو منه كل عصر من العصور وقد كان اللازم على مذهبكم أن تكون أساليبها

أكمل منها فى عصر دون آخر كالاطلاقا نعم قالوا ان الحميرية تخالف المضرية فى أشياء ولكن هذا ليس من باب تخالف النقص والكمال فى شئ واحد بل هذا الاختلاف فى جوهر اللغتين لافى الصفات العرضية كتخالف الانكليزية والفرنساوية مثلا وان كان يصدق على كل من المضرية والحميرية اسم اللغة العربية وقد تنزل القرآن على أسلوب ماعهد العرب مثله من قبله ولا من بعده ولم يكن ذلك الكمال عن تدريج طبيعى بل دفعة واحدة معجزة للرسول عليه الصلاة والسلام فلوكان كمال اللغة لايأتى الا من هذا الطريق أعنى طريق الترقى الطبيعى لما جاء هذا الكمال دفعة واحدة على انكم تقولون ان هذا الترقى يؤل بالمترقى الى الانتقال من نوع الى نوع آخر مع طول الزمان كما ترقى القرد الى الانسان ونحن ماوجدنا اللغة العربية مع طول العهد وبعد الامد تباينت أحوالها تباينا محسوسا ولا انتقلت الى لغة أخرى وهذه أشعار طسم وجديس وهما أقدم العرب لاتخالف بألفاظها وأساليبها شيأ من أشعار القبائل فى عهده صلى الله عليه وسلم* قال السيوطى فى المزهر فى طريق الاحتجاج بان اللغة توقيف من الله تعالى قال ابن فارس فان قال قائل أفتقولون فى قولنا سيف وحسام وعضب الى غير ذلك من أوصافه (أى السيف) انه توقيف حتى لايكون شئ منه مصطلحا

عليه

عليه قيل له كذلك نقول والدليل على صحته اجماع العلماء على
الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثم احتجاجهم
بأشعارهم ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك فى
الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم
ولا فرق ولعل ظانا يظن ان اللغة التى دلتنا على انها توقيف انما
جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الامر كذلك بل وقف الله
عز وجل آدم عليه السلام على ماشاء ان يعلمه اياه مما احتاج الى
علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ماشاء الله ثم علم بعد آدم من عرب
الانبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ماشاء الله ان يعلمه حتى انتهى
الامر الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأتاه الله من ذلك مالم
يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ثم قر الامر
قراره فلا نعلم من بعده لغة حدثت فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد
من نقاد العلم من ينفيه ويرده ولقد بلغنا عن أبى الاسود الدؤلى ان
امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الاسود فسأله أبو الاسود عنه فقال
هذه لغة لم تبلغنى فقال له يا ابن أخى انه لا خير لك فيما لم يبلغنى فعرفه
بلطف أن الذى تكلم به مختلق فانه لم يبلغنا ان قوما من العرب
فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شئ من الاشياء مصطلحين
عليه فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم وقد كان فى

الصحابة رضى الله عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر فى العلوم الشرعية مالا خفاء به وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو احداث لفظة لم تتقدمهم الى ان قال هذا كله كلام ابن فارس اه

فبان لك ان اللغة فى كل زمن أمرها الى التوقيف وانها لم تتخذ طريق الترقى المعهود للاصطلاح أعنى أن يزاد فى المواضعة عليها شيأ فشيأ كما يزاد على الصنائع والحرف فى كل زمان ولا يحتج بأن التوقيف بها فى أزمان مختلفة اذ وقف عليها آدم ثم من بعده من عرب الانبياء وانتهى أمر التوقيف فيها الى نبينا صلى الله عليه وسلم فهذا يدل على انها على أقساط فى كل حقبة من الزمان وكل قسط انما يصير التوقيف به دفعة واحدة وذلك كمال القرآن وأسلوبه الذى أعجز الفصحاء وبادههم كماله فلم يأت من طريق ترقى اللغة من عصر الى عصر فعلمنا أن كمال اللغة فى الكم والكيف لم يأت من هذا الطريق ولو كانت مواضعة واصطلاحا لكان لها فى كل زمان شأن جديد بالزيادة والكمال فان أمر الاصطلاح عليها لو قلنا به لا يتم فى عصر واحد ولا يقف فى زمن بل كان يستغرق الزمان كله ويدوم بدوام الانسان ولا ينقطع ولا يمكن ان يقوم به حكيمان أو ثلاثة من الحكماء كما مر عليك سابقا فان قال القائلون باصطلاحية اللغة إنا من أهل القبيلة لا نقول بالنشء

الطبيعى

الطبيعي ولا نعتقده مذهبا لنا بل نردّ القول فيه على قائليه ونؤمن بالله ونصدّق بالنبوات ونعترف بالمعجزات ولا نميل الى طريق الترفق اللازم على مذهب المادّيين فى اللغات وغاية الامر انا نقول بان اللغات مثلها مثل الصنائع الوضعية وليست بتوقيف من الله تعالى قلنا فقد لزمكم ان لم تقولوا بان لغة آدم عليه السلام كانت بتعليم الله وحيا أو إلهاما أنه عليه السلام كان أوّلا يستعمل الاصوات الساذجة التى شرحنا حالها للدلالة على أغراضه ويستعين بالاشارة على قضاء ما ربه وتبليغ ما أمر بتبليغه من الله تعالى ولاشكّ ان هذه الاصوات وتلك الاشارات غير كافية لطرق الدلالة وذلك يوجب القصور فى تبليغ الرسالة فان قلتم ان الله تعالى قد خلق فيه وفيمن بلغهم علما ضروريا بالالفاظ وفهمها فذلك عينه قول بالتوقيف فان القائلين به فى اللغات جعلوا من طرقه أن يخلق الله العلم الضرورى بها فى عباده

هذا وقد اطلعنا فى كتاب المحكم لابن سيده على عبارة يؤيد بها قول من يقول بان اللغات توقيفية فحسن عندى ان أنقلها بنصها وأتكلم عليها بكلام يقرّب الافهام الى تفصيل ماتضمنه مجملها وهى

اذا تأملنا حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدنا فيها

من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك علينا جانب الفكر حتى يطمح بنا أمام غلوة السحر فنسه مانبه عليه الاوائل من النحويين وحداه على أمثلتهم المتأخرون فعرفنا بتبينه وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه ولطف ما أسعدوا به وفرق لهم عنه وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى فقوى فى أنفسنا اعتقاد كونها توقيفا من الله وأنها وحى اهـ

رهف السيف كمنع رقته كأرهف وكل مرهاة غلوة والامد الغاية والمنتهى ﴿ كلام الشيخ خاص باللغة العربية لانها لغته وموضوع كلامه ولانها عند عارفيها موضع الاسرار واللطائف الكلامية والرقائق الحكمية فهى التى يظهر فيها أكثر من غيرها أنها من عند الله فالشيخ يقول انا اذا تأملنا فى حال اللغة العربية نجدها من لطف التعبير المنطوى على الاوضاع الحكمية ودقائق الصناعة ورقة الاساليب على نهج يسبى العقول ويملك الفكرة فتقف حائرة حتى تنساق الى الحكم بان ذلك من ضروب السحر بل غايته القصوى فن هذه الاسرار مانبه عليه الاوائل من النحاة وباراهم فيه المتأخرون منهم فكوشفنا بصحة ماوفقهم الله لكشفه من هذه الدقائق وما قدموه منها للافهام وأسعدهم به الحظ حتى فرقوا بين

كل نوع منها وميزوه عن الآخر ودوّنوا لذلك الكتب المطوّلة فنهم الفضل كل الفضل حيث أبانوا عما تشتمل عليه اللغة من اللطائف ولولاهم لما انكشفت هذه النفائس ولما زال الحجاب عن وجوه هذه المحاسن ولا عرفنا فضل اللغة التى لا يقدر على وضعها بهذا الاحكام العجيب الا ذو القدرة الباهرة فعلمنا أنها توقيف وقد أيدناه بما ورد من الاخبار المأثورة الدالة على أنها من عند الله فنها (أخرج وكيع وابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال علمه اسم كل شئ حتى البعير والبقرة والشاة) فلم يبق شك فى كونها توقيفية

هذا كلام اجمالى نفصله بعض التفصيل فنقول

انا اذا تأملنا فى أوضاع اللغة العربية وأجلنا الفكرة فى ميادين أساليبها الكلامية نراها قد وضعت على أحكم وضع وأحسن نظام قد اتخذت أساليبها خططا لاتتغير وهذا كل من أحكامها خذوا لايتبدل وهذه الخطط وتلك الاحكام لم تبن عليها اللغة جزافا بل لعلل وأسباب تظهر لمن يتدبر تلك الاحكام مثلا اذا قلنا ان الفاعل مرفوع هذا حكم مطرد فى كل فاعل فالحكم بالرفع على الفاعل دون النصب مثلا هو لمقتض يرجع الامر فيه لترويج وجوه الدلالة فى مثل هذا المقام وهذا المقتضى هو كون الفاعل أقوى حالا من

المفعول فى الواقع ونفس الامر من جهة كونه هو المؤثر والمفعول
هو المؤثر فيه فاقتضى حاله أن يمتاز بأشرف الحركات كما يمتاز الملك
مثلا بتاج الملك ليدل عليه به فهذا النوع من الدلالة الذى يتوصل
اليه بالحركات فضلا عما للكلمات والتراكيب من المدلولات دليل
على فضل اللغة التى كثرت مميزاتها وقربت فيها مآخذ الدلالات
للافهام من جميع الوجوه وسبب كون الرفع أشرف الحركات حتى
تمتاز به العمد وبالجملة التفاضل بين الحركات لأمور حقيقية واقعية
ترجع الى الخفة فى النطق أو الثقل ونحو ذلك فما يذكره متأخرو النحاة
من جعل ذلك مجرد نكات تلتمس بعد الوقوع وليست لاسباب حقيقية
قصور فى النظر وحط من قدر اللغة والا فهذه النكات عنوان على
ما اشتملت عليه اللغة من الاسرار وهكذا سائر الاحكام المندرجة
فى كافة الفنون العربية كلها ترشدك الى أسرار من هذا القبيل
يرجع أمرها الى ترويج أحوال الدلالة المعنوية أو المحسنات اللفظية
فلو خالفنا شيأ من هذه الاحكام لفاتت الفائدة التى كانت تؤدى
بهذا الحكم ويزيد بها الكلام جلاء ووضوحا وعليك بعلمى المعانى
والبيان تر العجب العجاب من هذا القبيل فان كان ذهنك يقصر
عن ادراك اللطائف المعنوية فهذا البديع ومحسناته التى تكاد
الالفاظ بها تشرب راحا يبعث فى النفوس الميتة روحا

على

على أن هذه الفنون لم تستوعب أسرار اللغة جميعها فهناك اسرار لم يحم حولها الباحثون فى هذا البحر العباب وهذه الاسرار من قبيل مالا تفصح عنه العبارات ولا يقف عليها الا الناشئ مع العرب أنفسهم والا فقارن بين شئ من شعر عربى جلف وبين أجود شعر لمن هو أعلم من الزمخشرى فى الفنون العربية تجدبونا بعيدا وفرقا مبينا فالعربى القح ينطق بالفصيح (أى هكذا خلقت) وامام الفنون يأخذ كلامه ويحلله بحثا وتدقيقا ويرجع مافيه الى فنونه الوضعية كلا الى نوعه فلا يجد فيه أدنى تخالف ثم يبقى عليه أشياء أخرى يدركها ذوقه من الكلام وتعجب بها نفسه يعجز عن الافصاح عنها ولايمكنه أن يأتى بها من طريق علمه ولو أعمل الفكرة وانتقى من الالفاظ ما يختارها ذوقه وأجهد نفسه فى ذلك كل الجهد

فظهر لك من هذا أن الموضوع ليست اللغة وأساليبها الكلامية الطبيعية بل الموضوع هو الفنون المستنبطة منها ولو كانت اللغة وأساليبها من قبيل الصناعات لكان المبرزون فى هذه الفنون أدخل فى صناعات الشعر والنثر من العرب أنفسهم الذين لايعرفون من هذه الفنون شيأ فان قلت ان العلم غير العمل قلنا ان الذين أفنوا أعمارهم فى صناعات الانشاء علما وعملا من المولدين لم يبلغوا شيأ يذكر فى جانب

العرب ولا يتجاوز ما يأتون به حد التقليد لمنشآتهم فكلامهم على الدوام نازل عن شأو البلاغة العربية ومظنة الخطا والغلط ولهذا لا يجوز الاستشهاد بكلامهم وان بلغوا ما بلغوا

الى هنا تمّ ما أردناه من سوق الدلائل القاطعة بان اللغات توقيفية ليس للبشر فيها جعل ولا اكتساب وهو آخر ما أردناه من مطالب هذه المقدمة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد النبي الاكرم وعلى آله وصحبه وسلم

يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة الفقير الى الله تعالى محمد الحسيني أعانه الله على أداء واجبه الكفائي والعيني

يا من حليت الانسان بأحسن البيان صل وسلم على نبيك الاكرم ورسولك السيد السند الاعظم سيدنا محمد سيد العرب والعجم الذي فضلت امته على سائر الامم وعلى آله وصحبه وتابعيهم الذين أجهدوا أنفسهم في تدوين لغته هذه الشريفة العربية توصلا لحفظ شريعته وملته الحنيفية (أما بعد) فان الله عزت حكمته فاضل في لغات عباده بين الحسن والصحيح والضعيف وجعلها قابلة للتحرير والتحريف والتصحيف فتداخل بعضها في بعض حتى امتزج العربي بالعجمي والعجمي بالعربي واضمحل بذلك أصلها وتغيرت صورها وأشد اللغات في ذلك اللغة العربية فقد تبدلت في ألسنة العامة صورها الاصلية بالكلية وتحرفت كل التحريف مفرداتها ومركباتها في جميع الاوضاع وعم ذلك جميع الاقطار العربية والبقاع حتى صار ما يتكلم به الناس الآن كأنه لغة أجنبية لا نسبة بينه وبين العربية كالفارسية والتركية فانتدب بعض الاذكياء

الى بيان بعض الكلمات والتراكيب العامية ببيان تحريفها وردها الى
اللغة الاصلية واستتبع ذلك حض الناس على الاقبال بالكلية الى تعلم
اللغة العربية حيث ان حسن المحادثة وطلاوة الملاطفة وانسجام
التآليف لمعرفة جميع الاحكام انما تكون بسلوك أساليب العرب وممن
جارى هؤلاء النجباء وسابق هؤلاء الاذكياء النحرير الذى لا يشق فى ميدان
الاذكياء غباره والنبراس الذى لا تخبو ناره ولا تطفأ أنواره منهل الفهوم
الذى راق وصفا الحسيب النسيب أمين الكتبخانة المصرية السيد وفا
فانه حفظه الله جمع فى هذا المعنى كتابا حافلا يروى وارده ويحوى من لطائف
النفائس كل شارده وسماه التحفة الوفائية فى اللغة العامية ثم أتبعه بهذا
الكتاب الرائق لرائديه من ذوى الالباب وسماه (مقدمة التحفة الوفائية)
توصلا لاجتناء ثمرته الشهية ولما كان لرأى العين أبهج من العسجد
واللجين بادر مؤلفه حفظه الله بطبعه رغبة فى عموم نفعه بالمطبعة
البهية ببولاق مصر المعزية فتم بحمد الله محببا بهذا الجمال مبتهجا بلطف
الكمال ۞ فى ظل الحضرة الفخيمة والعواطف الرحيمة حضرة المليك
الاكرم والخديوى الاعظم عزيز الديار المصرية وحامى حمى حوزتها
النيلية الذى لا يزال بين طلعته هنىّ الخير على رعيته يفيض ويهمى
أفندينا المعظم عباس باشا حلمى أيد الله دولته وقوّى شوكته وصولته
مشمولا هذا الطبع الجليل والشكل الجميل بنظر من عليه جميل طبعه يثنى
حضرة وكيل المطبعة محمد بك حسنى فى أوائل محرم الحرام سنة ١٣١٠
عشرة وثلثمائة وألف من هجرة سيد الانام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون